حياة القلوب

قلوب الصائمين أنموذجًا

ثلاثون درسًا في أعمال القلوب

تناسب أن تكون دروسًا يومية في شهر رمضان أو غيره

تأليف

د. سعد بن ناصر بن عبد العزيز أبو حبيب الشثري




الله
بسم الله الرحمن الرحيم

حياة القلوب

قلوب الصائمين أنموذجا


دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، ١٤٣٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الشثري، سعد ناصر

حياة القلوب، (قلوب الصائمين انموذجاً)/سعد ناصر الشثري -

الرياض ١٤٣٢هـ

١٤٨ ص؛ ١٧ × ٢٤سم

ردمك: ٠-٧٠-٨٠٥٥-٦٠٣-٩٧٨

١- الوعظ والإرشاد أ- العنوان

ديوي ٢١٣ ١٤٣٢/٢٨٤٦

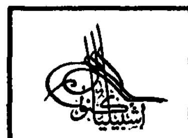
رقم الإيداع: ١٤٣٢/٢٨٤٦

ردمك: ٠-٧٠-٨٠٥٥-٦٠٣-٩٧٨

الطَّبعَة الأولى

١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع



المملكة العربية السعودية ص. ب ٢٧٢٦١ الرياض ١١٤١٧

هاتف: ٤٩١٤٧٧٦ - ٤٩٦٨٩٩٤ فاكس: ٤٤٥٣٢٠٣

E-mail: eshbelia@hotmail.com

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين.

أما بعد:

في عصرنا الحاضر اشتدت الضرورة لإحياء القلوب بسبب طغيان الحياة المادية الجافة، مما ولد تنافر القلوب وخواء الروح حتى وصل الحال إلى السآمة من الحياة والملل من كل ما فيها رغم وجود تلك الزخارف على جوانبها، وأنواع الزينة على أطرافها، وزاد الطين بلاً محاولات سد هذا الفراغ بخزعبلات مضحكة مبكية تولى كبرها مدعو التصوف الكاذب، فكان العلاج المستخدم هو الداء المميت، ومن هذا المنطلق سعيت إلى أن أساهم في علاج ذلك انطلاقاً من كتاب الله - عز وجل - وسنة نبيه ﷺ مع الاسترشاد بأقوال الأئمة من الصحابة الكرام ﷺ والتابعين الأجلاء وعلماء الأمة الأعلام من خلال سلسلة من الكتابات منها:

أولاً: كتاب (تزكية النفس).

ثانياً: كتاب (أمراض القلوب).

ثالثاً: كتاب (شرح التحفة العراقية في الأصول القلبية لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله).

رابعاً: كتاب (غاياتنا).

خامساً: كتاب (مشكلات من الحياة).

سادساً: كتاب (حياة القلوب: قلوب الصائمين أنموذجاً).

وهذا الكتاب الذي بين يديك، وأترك الحكم لك عليه، وأصله كلمات إذاعية تم بثها يومياً في إذاعة القرآن الكريم من عام ١٤٢٩هـ.

وأسأل الله أن يجزل الأجر والثواب لمن أكمل قراءة الكتاب، كما أسأله سبحانه حسن القصد في القول والعمل.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله صحبه وسلم.

المؤلف

سعد بن ناصر الشثري

١- الصيام وصلاح القلوب

الحمد لله رب العالمين، فعال لما يريد، لا رَادَّ لَمَا قَضَى، ولا مُعَقِّب لَمَا حَكَم، يتصرف في أحوال العباد وجوارحهم كيف يشاء، إذا قضى أمرًا فإنما يقول له كن فيكون، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، تتوجَّهُ قلوب الموحدين إليه وحده بعباداتهم وسؤالهم وتضرُّعِهم، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، كان يُكثر في دعائه من قول: «اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وسلم تسليمًا كثيرًا، أما بعد.

فيا إخواني الكرام أهنئكم بدخول شهر رمضان، شهر الخير والبركة، شهر زراعة التقوى في قلوب الصائمين، وأبتدئ معكم في هذا الشهر بالحديث عن القلوب التي عليها معول كبير، كما ورد في الحديث أن النبي ﷺ قال: **«إن الله لا ينظر إلى أجْسَادكم، ولا إلى صُوَرِكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»** رواه مسلم.

واسمع إلى قول الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[الأنفال: ٧٠] ولذلك حرَص المؤمنون على دعاء الله تعالى بإصلاح قلوبهم، فكان من دعائهم: «**ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا**»، وكان من دعائهم: «**اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا**»، وكان من دعاء النبي ﷺ: «**اللهم يا مقلب القلوب ثبِّت قلبي على دينك، اللهم يا مصرف القلوب اصرف قلبي**

لطاعتك»، وذلك لأن تثبيت قلب العبد على الدين وانصرافه إلى الحق من أعظم أسباب النجاة والفلاح والعصمة عن كثير من الذنوب، ويدلك على أهمية الاعتناء بالقلب ما يأتي:

أولًا: أن القلب مصدر الأعمال والاعتقادات، قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[النحل: ٧٨]، وقال النبي : «**ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «المقصود بالدعوة: وصول العباد إلى ما خُلِقوا له من عبادة ربهم وحده لا شريك له»، والعبادة أصلها عبادة القلب المستتبع للجوارح، فإن القلب هو الملك والأعضاء جنوده .

ثانيًا: أن الأجر والثواب يكون على مقدار ما في القلب من النية، كما قال النبي ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى**».

ثالثًا: أن القلب سريع التقلُّب، كما ورد في الحديث: «**إن قلوب بني آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء**»، قال ابن عمر: «كانت يمين النبي ﷺ: لا وَمُقَلِّبِ القلوب»، وفي حديث أنس: «مثل القلب كمثل ريشة بأرض فلاة تقلِّبُها الرياح».

رابعًا: أن الشياطين تلقي الوساوس في قلوب العباد، فتؤثّر على عمل العبد ومعتقده وتصوراته، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾[الأنعام: ١٢١]، وقال: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم

بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[الأنعام: ٤٣]، قال ابن عباس: «إن الشيطان جاثم على قلب ابن آدم، فإذا سها وغفل وَسْوَسَ، وإذا ذكر الله خنس».

خامسًا: أن القلب أداة يتمكن الإنسان بها من الفهم الصحيح، والتفريق بين الحق والباطل، قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[النحل: ٧٨]، وفي المقابل قال تعالى: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾[الأحقاف: ٢٦]، وقال: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ﴾[الأنعام: ١٢٥].

وسادسًا: أن الله تعالى سيسأل العبد يوم القيامة عن قلبه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾[الإسراء: ٣٦]، وللصوم تأثير عجيب في القلوب؛ وذلك لأن الصوم فيه كسر لشهوة البطن والفرج الموجب لتصفية القلب، ثم إن الصائم يبتعد عن المعاصي فيؤثر ذلك في صفاء قلبه، قال أبو سليمان: «الرين والقسوة زماما الغفلة ودواؤهما إِدْمان الصوم»، ولذلك أمر النبي ﷺ من لم يستطع الباءة والزواج من الشباب بالصوم، وقال: «**فإنه له وجاء**» أي قاطع للشهوة كمرض الخصيتين، ومن هنا كان للصائم دعوة لا تُرَدُّ لما في الصوم من كَسْرِ الشَّهْوَةِ وحضور القلب والتذلل للرب، قال ابن القيم رحمه الله: «وللصوم تأثير عجيب في حفظ الجوارح الظاهرة، والقوة الباطنة، وحميتها عن التخليط الجالب لها المواد الفاسدة التي إذا استولت عليها

أفسدتها، فالصوم يحفظ على القلب والجوارح صحتها، ويعيد إليها ما سلبته منها أيدي الشهوات، فهو أكبر العون على التقوى، قال النبي ﷺ: «الصوم جُنة»، والمقصود أن مصالح الصوم لما كانت مشهودة بالعقول السليمة، والفطر المستقيمة شرعه الله لعباده رحمة بهم وإحسانًا إليهم وحمية لهم وجُنة، وقال: «إن الصائم ليتصور بصورة من لا حاجة له في الدنيا إلا في تحصيل رضا الله»، وأي حسن يزيد على حسن هذه العبادة التي تكسر الشهوة، وتقمع النفس، وتحيي القلب وتفرحه، وتزهِّده في الدنيا وشهواتها، وترغِّبه فيما عند الله؟! وقال بعضهم: «في الصوم غذاء للقلب كما يغذي الطعام الجسم»، ولذلك أجمع مجربة أعمال الديانة من الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه على أن مفتاح الهدى والصحة هو الجوع؛ لأن الأعضاء إذا وهنت لله، نَوَّرَ الله القلب، وصَفى النفس، وقوى الجسم ليظهر أمر الإيمان بقلب العبد».

أسأل الله جل وعلا أن يجعلنا وإياكم ممن حصل التقوى بصيامه، وأسأله جل وعلا أن يتقبل منا ومنكم الصيام، وأن يعيننا في هذا الشهر الكريم على عبادته.

اللهم اجعل قلوبنا في هذا الشهر الكريم ممن استحضرت عظمتك ووجلت منك ورجت ما لديك، اللهم يا حي يا قيوم أصلح شأننا كله.

هذا والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

٢- الإخلاص

الحمد لله المنعم المتفضل، لا يقبل من الأعمال إلا ما كان خالصًا لوجهه الكريم، وأشهد أن لا إله إلا الله مخلصًا له الدين، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله الأمين صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين، أما بعد.

فإن الإخلاص من أعظم عبادات القلوب، فهو شرط للعبادة، بل هو سر العبادة، وسبب عظم الأجر عند أدائها، والمراد بالإخلاص أن يقصد العبد بعمله وجه الله والدار الآخرة، لا يقصد شيئًا من أمور الدنيا، ولا يقصد مراءاة الخلق ولا مجاملتهم، فالمخلصون هم المؤمنون ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾[النساء: ١٤٦] فالعبادة لا بد من الإخلاص فيها لتكون مقبولة عند الله، قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝ وَأُمِرۡتُ لِأَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾[الزمر: ١١-١٢] فكل عبادة لا بد فيها من الإخلاص، فالدعاء مثلًا لا بد من الإخلاص فيه لله وحده، سواء كان دعاء عبادة، أو دعاء مسألة، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [غافر: ٦٥]، وقال سبحانه: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾[البينة: ٥]، وقال جل وعلا: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾[الزمر: ٢].

وفي السنن أن النبي ﷺ قال: «إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصًا وابْتُغِيَ به وجهه»، وقال: «ثلاث لا يغل عليهن قلب امرئ مسلم - أي: لا يكون معها غش أو نفاق-: إخلاص العمل لله، والنصح لأئمة المسلمين ولزوم جماعتهم» وقال النبي ﷺ: «أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال: لا إله إلا الله خالصًا من قلبه».

إن المرء المؤمن يتمكن بواسطة الإخلاص من قلْبِ حياته كلها لتكون طاعة لله، فأكله ونومه ينوي به التقوي على طاعة الله فيؤجر عليه، ونفقته على أهله، وقيامه بحق والديه، وصلة رحمه، وإكرام جاره، وإحسان خُلقه ينوي به التقرب لله فيؤجر على ذلك، قال النبي ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى»، وقال: «إنك لن تنفق نفقةً تبتغي بها وجه الله إلا أجرت عليها»، ومن أهم الأسباب التي تجعل العقلاء يخلصون نياتهم لله عدد من الأمور:

أولها: أن الإخلاص شرط لقبول العمل؛ فمن لم يكن مخلصًا في عبادته وعمله لله، لم يقبل الله تعالى عمله، وثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «قال الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك معي فيه غيري تركته وشركه» وفي لفظ: «فأنا منه بريء» وهو كله للذي أشرك. وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[هود: ١٥-١٦].

وثانيها: أن النافع الضار هو رب العزة والجلال، فكيف نقصد بأعمالنا غيره طلبًا للنفع، قال تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ۝ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[الزمر: ٤٣-٤٤].

وثالثها: أن الأجر والثواب على مقدار النية والإخلاص، وإنما لكل امرئ ما نوى.

ورابعها: أنّ مَنِ الْتَمَسَ رضا الله ﷻ وأرضى عنه الناس، ومن الْتَمَسَ رضا الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط الله عليه الناس.

وخامسها: أن الإخلاص يمسح وساوس القلوب، ويعجز الشيطان أن يصل معه إلى القلب، فقد قال الشيطان: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[ص: ٨٢-٨٣].

وسادسها: أن المخلصين يبعدهم الله عن المعاصي، ويعصمهم من الذنوب، قال تعالى في قصة يوسف ؈: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[يوسف: ٢٤].

وسابعها: أن الإخلاص سبب لمغفرة الذنوب، وفي الحديث أن الله تعالى يقول: «**يا ابن آدم لو لقيتني بملء الأرض خطايا لا تشرك بي شيئًا لقيتك بملء الأرض مغفرة**»، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «إخلاص الدين لله هو الدين الذي لا يقبل الله سواه، وهو الذي بَعَثَ الله بِهِ الرسُلَ، وأنزل به جميع الكتب، واتفق عليه أئمة أهل الإيمان، وهذا هو خلاصة الدعوة النبوية، وهو قطب القرآن الذي تدور عليه رحاه».

ويتجلى الإخلاص في الصيام؛ إذ إن الصيام ينطلق من النية، فلا يصح الصيام الواجب لمن لم يبيت الصوم، ولم ينوه بالليل، والصوم إمساك عن المفطرات بنية التقرب لله، ولا يطلع على ذلك ولا على الامتناع من المفطرات حقيقة إلا رب العزة والجلال، ولذلك قال الله عز وجل في الحديث القدسي: **«كل عمل ابن آدم له، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به، يَدَعُ طعامه وشرابه وشهوته من أجلي»**، انظر إلى قوله: «من أجلي»، ولذلك اختص الله بالصيام ورتب عليه مضاعفة الأجر والثواب.

وقال النبي ﷺ: **«من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه، ومن قام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه»**، فانظر إلى قوله: «إيمانًا واحتسابًا» فلا تحصل مغفرة الذنب إلا لمن صام رمضان إيمانًا واحتسابًا، ولا تحصل مغفرة الذنب إلا لمن قام رمضان إيمانًا واحتسابًا، ولا تحصل مغفرة الذنب إلا لمن قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا، فما معنى قوله ﷺ: **«إيمانًا واحتسابًا»**؟

المراد بذلك: أن يؤمن العبْدُ أن الله شرع هذا العمل، وأن يقصد العبد بصومه احتساب الأجر عند الله تعالى، فإيمانًا: أي تصديقًا وإيقانًا بأن الله هو الذي شرعه، وأن الله هو الذي أمر به، وقوله: «احتسابًا»: يعني أن ينوي بعمله الأجر الأخروي، فيرغب في ثواب ذلك عند الله تعالى، قال ابن القيم رحمه الله: «العامل بغير إخلاص ولا اقتداء كالمسافر يملأ جرابه رملًا ينقله ولا ينفعه».

إن للصوم أثرًا عجيبًا في جَعْلِ قلب العبد يخلص لله تعالى، فإن العبد متى انقطعت عنه المواد التي تغذي قلبه بالأمور الفاسدة، والمعتقدات غير المرغوب

فيها بدأ يفكر في الإخلاص، وتَوَجَّهَ قلبه إلى ربه جل وعلا، خصوصًا أن الصيام يجعل العبد يَتَفَكَّر في قدرة الله عليه، ويتفكر في مقارنة العبد لنفسه بغيره، ثم إنه بعد ذلك يستشعر حاجته لله فيخلص في أعماله، ثم إن الصيام يجعل مجاري الشيطان تضيق، فإنه قد ورد في الحديث: «**أن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم**» فإذا ضيق العبد مجاري الدم بالصوم فلن يتمكن الشيطان من ولوج بدنه، فمن هنا تُصَفَّد الشياطين في هذا الشهر، ويستحضر العبد في أعماله نية الإخلاص لله تعالى.

فيا أيها المؤمنون أخلصوا نياتكم لله في جميع أعمالكم، إذا أحضرتم طعامًا لأبنائكم فانووا به التقرب لله، إذا أفطرت يا أيها المؤمن فانْوِ بإفطارك التقرب لله ومتابعة النبي ﷺ، وإذا أَكَلْتَ أَكْلَةَ السَّحر فانو بذلك التقرب لله جل وعلا.

اللهم إنا نسألك يا ربنا أن ترزقنا جميعًا الإخلاص في جميع الأعمال، اللهم اجعلنا لا نريد بأي عمل نعمله غير وجهك الكريم، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

٣- التقوى

الحمد لله الذي أعَدَّ الجَنَّةَ للمتقين، وأوجب الصيام لتحصيل التقوى في قلوب المؤمنين، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه وسلم تسليمًا كثيرًا، أما بعد.

فإن التقوى تصدر أصالة من القلب، كما قال النبي ﷺ: «التقوى هاهنا، التقوى هاهنا» وكان يشير إلى صدره ﷺ، وقد أمر الله تعالى بالتقوى فقال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[البقرة: ١٩٦]، وقال: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾[البقرة: ١٩]، وقال: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ﴾ [الزمر: ١٠]، بل إن التقوى هي وصية الله للأمم السابقة والأمم اللاحقة ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ﴾ ومن أجل التقوى بَيَّنَ الله الآيات والأحكام، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾[البقرة: ١٨٧].

والتقوى: وضْع وقاية بين العبد وغضب الله، وبينه وبين النار بفعل الطاعات وترك الذنوب، وقد فسر طلق بن حبيب (التقوى) بقوله: «التقوى: العمل بطاعة الله على نور من الله رجاء رحمة الله، والتقوى ترك معاصي الله على نور من الله، مخافة عذاب الله».

ومن أسباب التقوى: الصوم، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[البقرة: ١٨٣]، قال السمعاني: «الصوم وصلة إلى التقوى لما فيه من قهر النفس وكسر الشهوات».

وقال ابن تيمية: «مقصود الصوم التقوى».

وقد أمر الله بالصيام لأجل التقوى، وقد قال ﷺ: **«من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه»**، فإذا لم يحصل له مقصود التقوى فينقص من أجر الصوم بحسب ذلك، وقال غيره: «في الصوم قتل الشهوة حسًّا، وحياة الجسد معنًى، وطهارة الأرواح بطهارة القلوب وفراغها للتفكر والخشية الداعية للتقوى».

وقال الشيخ ابن سعدي: «ذكر الله تعالى حكمة مشروعية الصوم فقال: ﴿لَعَلَّكُم تَتَّقُونَ﴾ فإن الصيام من أكبر أسباب التقوى؛ لأن فيه امتثال أمر الله، واجتناب نهيه، فمما اشتمل عليه من التقوى أن الصائم يترك ما حرم الله عليه من الأكل والشرب والجماع، ونحوها من الأمور التي تميل إليها نفسه متقربًا بذلك إلى الله، راجيًا بتركها ثوابه، فهذا من التقوى، ومنها أن الصائم يدرِّبُ نفسه على مراقبة الله، فيترك ما تهوى نفسه مع قدرته عليه لِعِلْمِهِ باطلاع الله عليه.

ومنها: أن الصيام يضيِّقُ مجاري الشيطان، فإنه «يجري من ابن آدم مجرى الدم» فبالصيام يضعف نفوذه، وتقل منه المعاصي.

ومنها: أن الصائم في الغالب تكثر طاعته، والطاعات من خصال التقوى.

ومنها: أن الغني إذا ذاق ألم الجوع، أوجب له ذلك مواساة الفقراء المعدمين، وهذا من خصال التقوى، والسؤال ما الذي يدفعنا إلى التقوى؟ ما الذي يجعلنا نحرص على أن نكون من أهلها، ما الذي يدفعنا إلى ذلك؟ يدفعنا تلك الثمرات التي نحصل عليها بسبب التقوى، فالتقوى سبب لرضا رب العالمين عن العبد، ومحبته له، والله يحب المتقين.

التقوى سبب للفهم والهداية والعلم، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[البقرة: ٢]، وقال: ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾[الأنفال: ٢٩].

التقوى سبب دخول الجنة، قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[آل عمران:١٣٣].

البر والفلاح مُعلق بالتقوى، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ وَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[البقرة: ١٨٩].

التقوى سبب لعون الله للعبد ونصرته، كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[البقرة: ١٩٤].

التقوى سبب للخروج من المآزق، وسبب لِرَغَدِ العيش، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[الطلاق: ٢-٣].

التقوى سبب للمغفرة والرحمة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[الحجرات: ٣]، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[الحجرات: ١٠]، ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[الحجرات: ١٣].

التقوى سبب للبركة في الأرزاق ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾[الأعراف: ٩٦] ما ظنك بمن كان الله معه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾[النحل: ١٢٨].

ولئن أصاب المتقين ما أصابهم إلا أن العاقبة الحميدة لهم، قال تعالى: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[طه: ١٣٢] وقال: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ

وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[الأعراف: ١٢٨]، وقال: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[الجاثية: ١٩]، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾[الطلاق: ٤] فالدافع الذي يحرك المؤمنين لاستجلاب التقوى أسباب عديدة، منها:

أولًا: أن الله أمر بها، والمؤمنون يبادرون إلى امتثال أمر الله، قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾[المائدة: ٨٨]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران: ١٠٢].

وثانيًا: عظم الفوائد المرتبة على التقوى في الدنيا والآخرة ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾[النور: ٥٢]، قال الله تعالى: ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[الزمر: ٦١]، وقال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾[الليل: ٥-٧].

وثالثًا: أننا نستشعر بتقوى الله مراقبة الله لنا، فنستحي أن يطَّلِع منا على ما يخالف التقوى، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾[آل عمران: ١١٥]، وقال سبحانه: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾[المائدة: ٧] ونحن نعلم أننا عما قريب سنرجع إلى الله كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[البقرة: ٢٢٣]، وقال سبحانه: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾[المائدة: ٩٦].

ورابعًا: أن التقوى صفة أولياء الله الذين يحبهم الله ويتولاهم، ويكونون تحت ولاية الله، قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[يونس: ٦٢-٦٤].

لكن كيف نحصل التقوى؟ تحصيل التقوى يكون بالاتصاف بصفات المتقين، قال تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[آل عمران: ١٣٣-١٣٤].

احصل على التقوى لأنها سبب دخول الجنة ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ۝ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِي ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[النحل: ٣٠-٣١]، ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۖ﴾[الزمر: ٢٠]، ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ۝ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ۝ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾[الحجر: ٤٥-٤٨].

تحصل التقوى بتدبُّر القرآن وتفهُّم معانيه ﴿وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[البقرة: ٦٣]، ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾[الزمر: ٢٧-٢٨] تحصل التقوى بالتفكر في أحوال أهل النار الذين يقول الله فيهم: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾[الزمر: ١٦].

ومن سبل تحصيل التقوى التعاون من المؤمنين على الخير، قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[المائدة: ٢].

يمكنك أيها العبد أن تحصل تقوى الله باستشعار أن الله هو الذي خلقك ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾[النساء: ١].

حَصِّل التقوى بالنظر في نعم الله عليك ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾[الشعراء: ١٣٢-١٣٤].

احْصِل على التقوى من خلال تذكّرِك ليوم القيامة وأهواله ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾[الحج: ١].

تحصل التقوى بسؤال الله ودعائه أن يجعلك من المتقين، فإن التقوى نعمة من الله للعبد، قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾[الشمس: ٧-٨].

اللهم اجعلنا من المتقين، وصلى الله على نبينا محمد .

٤- المراقبة

الحمد لله الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أما بعد.

فإن قلوب المؤمنين العقلاء تستشعر أن الله تعالى يراقبهم، قال تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ﴾[البقرة: ٢٣٥] وقال: ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ﴾[غافر: ١٩]، وقال: ﴿يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى﴾[طه: ٧]، وقال: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾[العلق: ١٤]. جاء رجل إلى عبد الله بن المبارك فقال له: أوصني، فقال: راقب الله. فقال الرجل: وما مراقبة الله؟ قال: أن تستحي من الله، وكن أبدًا كأنك ترى الله.

والأمين الشنقيطي رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾[هود: ٥] قال: «اعلم أن الله تبارك وتعالى ما أنزل من السماء إلى الأرض واعظًا أكبر ولا زاجرًا أعظم مما تضمنته هذه الآيات الكريمة وأمثالها في القرآن مِنْ أنه تعالى عالم بِكُل ما يعمله خلقه، رقيب عليهم، ليس بغائب عما يفعلون».

وضرب العلماء لهذا الواعظ الأكبر والزاجر الأعظم مثلًا ليصيرَ به كالمحسوس، فقالوا: لو فَرَضْنَا أن ملكًا قتّالًا للرجال سفّاكًا للدماء شديد البطش والنكال على من انْتَهَك حرمته ظلمًا، وسيّافه قائم على رأسه، والنطع مبسوط للقتل، والسيف يَقْطُر دمًا، وحول هذا الملك الذي هذه صفته جواريه وأزواجه وبناته،

فهل ترى أن أحدًا من الحاضرين يَهِم بريبة أو بحرام يناله من بناته أو أزواجه وهو ينظر إليهم، عالم أنه مطلع عليه؟ كلّا، لا يَحصُل ذلك، بل تجد جميع الحاضرين يكونون خائفين وَجِلَة قلوبهم، خاشعة عيونهم، ساكنة جوارحهم خوفًا من بطش ذلك الملك، ولا شك -ولله المثل الأعلى- أن رب السماوات والأرض جل وعلا أكثر علمًا وأعظم مراقبة، وأشد بطشًا، وأعظم عقوبة ونكالًا من ذلك، وحِمَى الله محارمه، فإذا لاحظ الإنسان الضعيف أن ربَّه جل وعلا ليس بغائب عنه، وأنه مطَّلِع على كل ما يقول ويفعل وما ينوي لان قلبُهُ وخَشِيَ الله تعالى، وأحسَنَ عمله لله.

ومن أسرار هذه الموعظة الكبرى أن الله تبارك وتعالى صَرَّح بالحكمة التي خَلَقَ الخَلْقَ من أجلها وهي: أن يبتليهم ويختبرهم أيهم أحسن عملًا، ولم يقل: أيهم أكثر عملًا، فالابتلاء في إحسان العمل، كما قال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[هود: ٧]، وقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[الملك: ٢].

ولا شك أن العاقل إذا علم أن الحكمة التي خُلِقَتْ هذه الأمور لأجلها هي أن يبتلى -أي: يختبر- بإحسان العمل، فإنه يهتم كل الاهتمام بالطريق الموصل إلى نجاحه في هذا الاختبار، ولهذا سأل جبريل النبي ﷺ وكان ذلك بمحضر من الصحابة ليتعلموا منه، فقال: **«أخبرني عن الإحسان؟»**، وهو الذي خُلِقَت هذه المخلوقات لأجل الاختبار فيه، فبَيَّنَ النبي ﷺ أن الطريق إلى ذلك هو هذا الواعظ والزاجر الأكبر الذي هو مراقبة الله تعالى، والعلم بأنه لا يخفى شيء عليه مما يفعل خلقه، قال له: **«الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»**.

وقال الله جل وعلا: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ۝٨ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ۝٩ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾[الرعد: ٨-١٠]، وقال سبحانه: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[يونس: ٦١]، فلا تغفل أيها العاقل عن مراقبة مَنْ لا يَعْزُبُ عنه أصغر من مثقال ذرة، ولا تشبع ولا تمل من مراقبة الله، فإنه تعالى لا يغفل عنها، ينظر إليك ويطلع على ضميرك، ويحصي عليك مثاقيل الذر، وموازين الخردل حتى يجزيك بذلك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[النساء: ٤٠].

ويا أيها المؤمن إذا كنت في خلوتك عملت أعمالًا فإذا حضرك صبي أقلعت عن فعلك وأحسنت جلوسك حياءً منه، فما حالك إذا اطَّلع عليك أمير أو كبير، فكيف إذا اطَّلع عليك ملك الملوك الذي يتصرف في الكون كيف يشاء؟!

فَرَاقِبِ الله أيها العاقل في جميع حركاتك وسكناتك وخطراتك ولحظاتك، واجعل عملك كله لله الذي يقول: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾[الأحزاب: ٥١].

وفي قوله تعالى: ﴿يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾[لقمان: ١٦]، قال ابن

سعدي: «أي لطف في علمه حتى اطلع على البواطن والأسرار، وخفايا القفار والبحار».

والمقصود من هذا: الحث على مراقبة الله والعمل بطاعته مهما أمكن، والترهيب من عمل القبيح قَلَّ أو كَثُرَ، وقال بعضهم: من اتقى الله في ظاهره عن تناول الشبهات وأَصْلَحَ باطنه بدوام مراقبة الله عز وجل فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وقيل لأحدهم: متى يَهُشّ الراعي غنمه بعصاه عن مراتع الهلكة؟ فقال: إذا علم أن عليه رقيبًا.

وقال الإمام الشافعي رحمه الله: «صبرًا جميلًا ما أقرب الفرج، مَنْ راقب الله في الأمور نجا، ومن صَدَقَ الله لم يَنَلْهُ أذى، ومن رجاه يكون حيث رجا».

وقال عمر بن عبد العزيز: «ومِنَ الناس من يعيش شقيًّا جيفة الليل غافل اليقظة، فإذا كان ذَا حَيَاءٍ ودين رَاقَبَ الله واتقى الحفظة، إنما الناس سائر ومقيم، والذي صَار للمقيم عظة».

قال ابن القيم: «مراقبة الله تعالى في الخواطر سبب لحفظها في حركات الظواهر، فمن راقب الله في سره حفظه الله في حَرَكاته في سِرّه وعلانيته، والمراقبة هي التعبّد لله باسمه الرَّقيب الحفيظ العليم السميع البصير، فَمَنْ عقل هذه الأسماء وتَعَبَّدَ بمقتضاها حَصَلَتْ له المراقبة»، وقال: «المراقبة دوامُ علم العبد وتيقنه باطلاع علم الله سبحانه على ظاهره وباطنه، فاستدامته لهذا العلم واليقين هي المراقبة، وهي ثمرة علمه بأن الله سبحانه رقيب عليه ناظر إليه، سامع لقوله، وهو مطلع على عمله كل وقت وكل لحظة وكل نفس وكل طرفة عين»، والذي يدفع العبد إلى أن يستشعر مراقبة الله له أمور عديدة، منها:

أولًا: أن الله لا يخفى عليه شيء، وقد وكل بالعبد ملائكة يرصدون عليه جميع أقواله وأعماله ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ ۝ كِرَامًا كَـٰتِبِينَ ۝ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠-١٢].

ثانيًا: عِظَمُ أجْر المؤمن باستشعاره لمراقبة الله، فمُرَاقبة الله أكثر ثوابًا من قِيَام الليل، وصيام النهار، وإنفاق المال في سبيل الله.

ثالثها: أن مراقبة الله يَنْتُج عنها الإقدام على الطاعات، وترك الخطايا والسيئات، والنَّدم والتوبة على ما وَقَع من العبد من زلل، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾[الأعراف: ٢٠١].

رابعها: أن العاقبة الحميدة في الدنيا والآخرة مربوطة بمراقبة الله، فمن راقب الله حَفِظَه الله، ومن أضْمَرَ خلافه خذله الله، والله يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، ولَسْنَا مع ذلك نَأْمَنُ من حوادث الأمور، وبَغَتَاتِ الأجَلِ.

فيا أيها المؤمن اعلم أن مراقبتك لله من أعظم أعمالك الصالحة، ومن أعظم ما يقرِّبُك إلى الله، ومن أعظم ما يجعلك تأمن من معاصي الله، ويجعلك تقدم على التوبة إلى الله، ويجعل الشياطين تبتعد عنك بإذن الله.

أسأل الله جل وعلا أن يجعل في قلوبنا جميعًا مراقبته، اللهم اجعلنا يا حي يا قيوم نراقبك في جميع أعمالنا.

هذا، والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

٥- تدبر القرآن

الحمد لله الذي أنزل القرآن شفاءً لما في الصدور، وهدى وموعظة للمتقين، وأشهد أن لا إله إلا الله كلامه صدق وحق مبين، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله الأمين، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليمًا كثيرًا، أما بعد.

فإن من عبادات قلوب المؤمنين: تدبر القرآن، وخصوصًا في شهر رمضان، قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَـٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ﴾[البقرة: ١٨٥] ومن أعظم القربات، وأعظم المواعظ، وأفضل أسباب حياة القلوب تدبر القرآن، والتفكر في قصصه ومواعظه، وحججه وبيناته وأدلته ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَـٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ﴾[الحشر: ٢١].

أيها المؤمن اسمع ربك وخالقك المتصرف في الكون يقول: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[ق: ٣٦-٣٧].

قال ابن القيم رحمه الله في تفسير هذه الآية: «الناس ثلاثة رجال: رجل قلبه ميت، فذلك الذي لا قلب له، فليست هذه الآية ذكرى في حقه، وهو بمنزله الأعمى الذي لا يبصر، والثاني: رجل له قلب حي مستعد، لكنه غير مستمع للآيات المتلوة، التي يخبر الله بها عن الآيات المشهودة، إما لعدم ورودها إليه، أو لوصولها إليه وقلبه مشغول عنها بغيرها، فهذا أيضًا لا تحصل له الذكرى مع استعداده ووجود قلبه، فهو بمنزلة البصير الذي يشاهد جهة غير الجهة التي يستفيد من النظر إليها، والثالث: رجل قلبه حي مستعد تليت عليه الآيات فأصغى بسمعه،

وألقى السمع وأحضر القلب، ولم يشتغل بغيره، فهو شاهد القلب، ملقى السمع، فهذا الذي ينتفع بالآيات المتلوة والمشهودة».

فمن كان له قلب وقّاد يَستخرج العبر ويتفهم المعاني من الكتاب العزيز، فهذا الذي يكون للآيات القرآنية نور في قلبه، وهؤلاء هم أكمل خلق الله، وأعظمهم إيمانًا وبصيرة، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾[محمد: ٢٤]، وهذا إنكار على من يعرض عن تدبر القرآن، وقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[النساء: ٨٢]، وقال: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[المؤمنون: ٦٨]، وقال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[ص: ٢٩].

وقد ذم الله جل وعلا المعرض عن هذا القرآن بما يشمل المعرض عن تدبره، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾[الكهف: ٥٧]، وقال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾[السجدة: ٢٢].

ومن لم يشتغل بتدبر آيات هذا القرآن العظيم، أي لم يشتغل بتفهمها وإدراك معانيها والعمل بها، فإنه معرض عنها، غير متدبر لها، فيستحق الإنكار والتوبيخ المذكور في هذه الآيات، وترك تدبر القرآن من أنواع هجر القرآن الداخل في قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾[الفرقان: ٣٠].

قال العلامة الشنقيطي: «الحق الذي لا شك فيه أن كل من له قدرة من المسلمين على التعلم والتفهم وإدراك معاني الكتاب والسنة يجب عليه تعلمهما، والعمل بما علم منهما».

إن من أعظم ما يدعو الإنسان إلى التدبر في كتاب الله: ما احتواه هذا الكتاب من الخير العظيم، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾[النساء: ١٧٤] وقال: ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[المائدة: ١٥-١٦]، وقال: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾[الشورى: ٥٢]، فإذا كان القرآن نورًا فكيف تعمى بصيرة عاقل عن الاستضاءة بذلك النور.

ومن فضل الله علينا في عصرنا الحاضر أن استجد لنا من وسائل التقنية وآلات الاتصال ما يمكّن المرء من قراءة القرآن وسماعه وتدبُّرِه في أي مكان، مما يسهل عليه فهم القرآن وتدبره.

قال الثعالبي: «تدبر القرآن كفيل لصاحبه بكل خير».

وقال ابن سعدي: « ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَٰرَكٌ﴾ فيه خير كثير وعلم غزير، فيه كل هدى من ضلالة، وشفاء من داء، ونور يستضاء به في الظلمات، وفيه كل حكم يحتاج إليه المكلفون، وفيه من الأدلة القطعية على كل مطلوب ما كان به أجل كتاب طرق العالم منذ أنشأه الله ليدبروا آياته، أي هذه الحكمة من إنزاله، ليتدبر الناس آياته فيستخرجوا علمها، ويتأملوا أسرارها وحِكَمَهَا، فإنه بالتدبر فيه والتأمل لمعانيه، وإعادة الفكر فيها مرة بعد مرة تُدْرَكُ بركَتُهُ وخيْرُه، وهذا يدل على الحث على تدبر القرآن، وأنه من أفضل الأعمال، وأن القراءة المشتملة على التدبر أفضل من

سرعة التلاوة التي لا يحصل بها هذا المقصود، وبحَسَبِ لُبِّ الإنسان وعقله يحصُلُ له التذكر والانتفاع بهذا الكتاب».

وقال ابن القيم: «فليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده، وأقرب إلى نجاته من تدبر القرآن وإطالة التأمل فيه، وجمع الفكر على معاني آياته، فإنها تُطْلِع العبد على معالم الخير والشر بحذافيرها، وعلى طرقاتها وأسبابها وغاياتها وثمراتها، ومآل أهلها، وتضع في يده مفاتيح كنوز السعادة والعلوم النافعة، وتثبِّتُ قواعد الإيمان في قلبه، وتُرِيه أيام الله في الأمم السالفة، وتبصِّرُه بمواقع العِبَر، وتُشْهِدُهُ عَدْلَ الله وفضله، وتعرفه ذاته وأسماءه وصفاته، وأفعاله وما يحبه، وما يبغضه، وصراطه الموصل إليه.

ومفتاح حياة القلوب: تدبر القرآن، والضراعة بالأسحار، وتوبة العبد وتركه للذنوب، والذي يدعو لتدبر القرآن عدد من الأمور، منها:

أولًا: طاعة أمر الله جل وعلا الذي أمر بتدبر القرآن، قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[الزخرف: ٣].

وثانيها: أن تدبُّرَ القرآن يعرف العبد بمعالم الخير والشر وطرقهما وثمراتهما ومآل أهلهما، وكيفية التمييز بينهما.

وثالثها: أن تدبر القرآن يثبت الإيمان في القلب ويرسخه بقواعد متينة.

ورابعها: أن تدبر القرآن يزيد في عقل الإنسان من خلال مطالعة عواقب الأمور، ومعرفة ما حل بالأمم السابقة.

وخامسها: أن بتدبُّر القرآن يعرف المرء معاني أسماء الله الحسنى، ويتعرف على ما يحبه الله ويرضاه، فيستجلب بذلك رضا الله رب العالمين، وخير الدنيا والآخرة.

وسادسها: أن المرء بتدبُّر القرآن يتمكن من تطبيق القرآن على نفسه، بل ويمكنه من تعرّفُ صفات نفسه، ليتمكن من معالجتها بما يناسبها، وبتدبُّر القرآن تزول كثير من وساوس الشياطين، ويتمكن المرء من صَدِّ هذا العدو عنه.

وأما الوسائل المعينة على تدبر القرآن: فترتيل القرآن وحسن قراءته، واختيار الأوقات المناسبة لقراءته، وتفريغ القلب من المشغلات وقت قراءته، ومراجعة تفسيره من السنة النبوية، وكلام أهل اللغة، وما كتبه المفسرون الموثوقون، وأعظم من ذلك كله سؤال العبد لربه أن يُفَهِّمَه معاني كتابه، وأما ثمرات القرآن فحدِّث ولا حرج، ثمرات تدبّر القرآن أعظم من استيعابها من مثلي، إذ إنني أعلن عجزي عن استتمام ذكرها.

فتدبر القرآن إن رمت الهدى   فالعلم تحت تدبر القرآن

أسأل الله جل وعلا أن يرزقنا وإياكم قلوبًا تفهم كتاب الله، وتعرف معانيه، وتدرك أسراره، كما أسأله جل وعلا أن يفتح علينا وعليكم من أبواب فهم القرآن ما يقرِّبُنَا إلى رضاه، ويرفع درجاتنا عنده، ويُعْلِي منزلتنا في جنته، ويجعلنا من المقربين عند رسله، كما أسأله جل وعلا أن يفتح لنا أسرار كتابه.

هذا، والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

٦- حسن التوكل على الله

الحمد لله رب العالمين، ينعم على عباده ويصرِّف شؤونهم، نحمده سبحانه ونشكره، ونثني عليه بما هو أهله، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وسلم تسليمًا كثيرًا، أما بعد.

فإن من عبادات القلب التي يعظم أجرها ويكثر ثوابها: حسن التوكل على الله. والمراد بالتوكل على الله: صدق اعتماد القلب على الله عز وجل في استجلاب المصالح ودفع المضار من أمور الدنيا والآخرة، مع تفويض الأمور إلى الله، وتحقيق الإيمان بأنه النافع الضار، لا يعطي ولا يمنع، ولا يضر ولا ينفع أحد سواه مع فعل الأسباب، فالتوكل على الله هو الثقة بما عند الله، الثقة بما وعد الله به. و يكون المؤمن في جميع أعماله ، وفي جميع شؤون حياته متوكلًا على الله، ومن أمثلة ذلك:

إذا هَمَّ الإنسان بأداء عمل لتحقيق هدف معين تَوَكَّلَ على الله في تحقيق تلك الأهداف، قال سبحانه: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾[آل عمران: ١٥٩].

وعند تكالب الأعداء على المسلم يتوكل المسلم على ربه في دفع شرورهم مع بَذْلِ الأسباب في ذلك فينجيه الله تعالى من شرورهم، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلاً﴾[النساء: ٨١] وقال: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ٥١].

وعند إعراض المدعوِّين عما تدعوهم إليه من الخير والفضيلة توكل على الله، قال تعالى: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ

ٱلرَّحِيمِ﴾[الشعراء: ٢١٦-٢١٧]، وقال: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾[التوبة: ١٢٩].

وعند مقابلة العدو في القتال وحصول القتال يُشْرَع تذكر أن النصر من عند الله، ويشرع التوكل على الله لينصر الله دينه ويُعْلِي كلمته، قال تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[آل عمران: ١٦٠].

وعند حلول المصائب يتوكل المؤمن على ربه فينَجِّيه الله منها، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ ٱلْأَخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[النحل: ٤١-٤٢].

وعند التنازع والاختلاف يتوكل المؤمن على ربه، ويعود إلى كتابه العزيز، قال تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[الشورى: ١٠].

فتتوكل أيها المؤمن على الله أن يعينك على طاعته، وأن ييسر لك أمر دنياك وآخرتك، وأن يهديك لما اختُلِف فيه من الحق بإذنه، وتتوكل على الله في دفع شرور الأعداء، وكَبْتِ ما يريدون بك من سوء.

ومن فوائد التوكل على الله: أن التوكل من أسباب محبة الله للعبد، قال تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾[آل عمران: ١٥٩]، والتوكل سبب لنعيم الآخرة.

ومن فوائد التوكل على الله: طرد الشياطين عن المؤمن المتوكل، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَـٰنٌ عَلَى

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ﴾[النحل: ٩٨-١٠٠].

وفي الحديث قال النبي ﷺ: «**إذا خرج الرجل من بيته فقال: بسم الله توكلت على الله لا حول ولا قوة إلا بالله، يقال له: هُديت وكفيت ووقيت، فتتنحى عنه الشياطين، فيقول شيطان لآخر: كيف لك برجل قد هدي وكُفِيَ ووُقي**».

ومن فوائد التوكل: أنه من أسباب الرزق، ولذا قال النبي ﷺ: «**لو أنكم تتوكلون على الله حق التوكل لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصًا وتروح بطانًا**»، وقال: «**مَنْ نَزَلَتْ بِهِ فاقة فأنزلها بالله فيوشك الله له برزق عاجل أو آجل**».

ومن فوائد التوكل: راحة البال، وطمأنينة النفس، وهدوء القلب.

ومن فوائد التوكل: عصمة العبد من معاصي الله.

والتوكل من أسباب دخول الجنة بلا حساب ولا عذاب مع السبعين ألفًا.

ومن فوائد التوكل: وقاية الله لعبده المتوكل من مصائب الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ﴾[آل عمران: ١٧٣-١٧٤]، وقال الرجل المؤمن من آل فرعون: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ﴾[غافر: ٤٤-٤٥].

وتتعدد الأسباب التي تجعل المؤمن يتوكل على ربه، ومن ذلك أن الأمور كلها بيد الله، فهو سبحانه الذي يتصرَّف في خلقه بما يشاء، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ

عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[هود: ١٢٣]، وقال: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[هود: ٥٦].

ومن أسباب التوكل: أن الله مطلع على أحوال الخلق، لا يخفى عليه شيء منها، قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾[الشعراء: ٢١٧-٢١٩]، والمؤمن الذي يكون على الحق ينتظر معونة الله فيتوكل عليه، ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾[النمل: ٧٩].

إن الله جل وعلا وعد من تَوَكَّلَ عليه بأن يكفيه، قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾[الأحزاب: ٤٨]، وقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾[الطلاق: ٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وفي حديث أبي موسى الأشعري المتفق عليه أن النبي ﷺ قال عن لا حول ولا قوة إلا بالله: «هي كنز من كنوز الجنة»، والكنز مال مجتمع لا يحتاج إلى جمع، وذلك أنها تتضمن التوكل والافتقار إلى الله، ومعلوم أنه لا يكون شيء إلا بمشيئة الله وقدرته، وأن الخلق ليس منهم شيء إلا ما أحدثه الله فيهم، فإذا انقطع القلب للمعونة منهم وطلبها من الله وحده فقد طلبها من خالقها الذي لا يأتي بها إلا هو ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ﴾[يونس: ١٠٧]، وقد حصر الله المؤمنين في المتوكلين ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[الأنفال: ٢] مما يدل على أن المؤمن إنما يتوكل على الله وحده، وهذا معنى قوله: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِي وَكِيلًا﴾[الإسراء: ٢].

روى ابن ماجه بإسناده: «أن من قلب ابن آدم بكل وادٍ شعبة، فمن اتَّبَع قلبه الشعب كلها لم يبال الله بأي وادٍ أهلكه، ومن توكَّلَ على الله كَفَاه التشعب».

قال العز بن عبد السلام: «التوكل ناشئ عن معرفة تفرد الرب بالضر والنفع والخفض والرفع والعطاء والمنع والإعزاز والإذلال، والإكثار والإقلال».

ومما يدخل في مفهوم التوكل على الله: إحسان الظن به سبحانه، وانتظار الفرج، وفعل الأسباب، وأعظم أنواع التوكل: التوكل على الله في جلب الهداية ونشر الدين، وثبات الإيمان.

فتوكل على الله أيها المؤمن في أن يعينك على الصيام، وتوكل عليه في أن يحفظ صيامك من المعاصي والآثام، وتوكَّلْ عليه في أن يقبل صيامك وتؤجر عليه، وتوكل عليه في أن يهيئ لك من الطاعات في شهر رمضان ما يرضي ربك عنك، وتوكل على الله في جميع شأنك.

والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد.

٧- امتلاء قلوب المؤمنين بالخوف من رب العالمين

الحمد لله رب العالمين، الحمد لله القوي العزيز، صاحب البطش الشديد، فعال لما يريد، كم أهلك من أمة كافرة؟! وكم أخذ من جماعة ظالمة؟! والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد.

ففي لقائنا هذا من لقاءات (قلوب الصائمين) نتحدث عن امتلاء قلوب المؤمنين بالخوف من رب العالمين، قال الله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[النور: ٦٣] إن من الأمور التي تدعو العبد إلى زيادة الخوف من الله تعالى: كثرة المعاصي التي فعلها العبد ويخاف من سوء عاقبتها، فإذا كان أنبياء الله صلوات الله عليهم وسلامه يقولون: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[الزمر: ١٣] فكيف بغيرهم من أفراد الناس، ومن طرق تحصيل خوف الله تعالى: تصديق الله في وعده ووعيده، وذلك أن المرء يخاف أن يُدْخِلَه الله نار جهنم ويعذِّبه بها، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾[الزمر: ١٥-١٦].

ومما يزيد الخوف في قلب العبد من ربه جل وعلا: معرفة تلك العقوبات العظيمة التي أنزلها الله بالأمم السابقة، فإن من تأمَّلَهَا وتَفَكَّرَ فيها زادَهُ ذلك خوفًا من الله تعالى، قال سبحانه: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ

تَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾[الذاريات: ٣٢-٣٧] ثم إن العبد يخشى من ربه أن يوقع عليه العقوبات في الدنيا بسبب سوء عمله، قال تعالى في وصف من يتوسل إليه التوسُّل المشروع: ﴿وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا﴾[الإسراء: ٥٧-٥٨].

إن ملاحظة الآيات الكونية وما قَدَّرَهُ الله من المخلوقات العظيمة يَزْرَعُ الخوف من الله في قلب العبد، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَـٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾[الرعد: ١٢-١٣]، وقال سبحانه: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾[الإسراء: ٥٩].

إن تحصيل العلم الشرعي يُنْتِجُ الخوف في قلب العبد، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ ۗ﴾[فاطر: ٢٨] ومن أسباب تحصيل خوف الله جل وعلا أن يستشعر العبد أن الله يراقبه، ولا يخفى عليه شيء من أحواله، قال سبحانه: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ﴾[البقرة: ٢٣٥]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «من طلب من العباد العوض ثناءً أو دعاءً أو غير ذلك لم يكن محسنًا إليهم، ومن خاف الله فيهم ولم يخفْهم في الله كان محسنًا إلى الخلق، محسنًا إلى نفسه، فإن خوف الله يحمله على أن يعطيهم حقهم، ويكف عن ظلمهم، ومن خافهم ولم يخف الله فيهم، فهذا ظالم لنفسه ولهم، حيث خاف غير الله ورجاه؛ لأنه إذا خافهم دون الله احتاج أن يدفع شرهم عنه بكل وجه، إما بمداهنتهم أو مراءاتهم، وإما بمقابلتهم بشيء أعظم من شرهم أو مثله، فإذا رجاهم لم يقم بحق الله فيهم، وإذا لم يخف الله فهو مختار

للعدوان عليهم؛ فإنَّ طبع النفس الظلم لمن لا يظلمها، فكيف بمن ظلمها، فتجد هذا الضرب من الناس كثير الخوف من الخلق كثير الظلم إذا قدر، مهين ذليل إذا قُهِرَ، فهو يخاف الناس بحسب ما عنده من ذلك، وهذا مما يوقع الفتن بين الناس، وكذلك إذا رجاهم فهم لا يُعطونه ما يرجوه منهم، فلا بد أن يبغضهم فيظلمهم إذا لم يكن خائفًا من الله، والإنسان إذا لم يخف من الله اتبع هواه، ولاسيما إذا كان طالبًا ما لم يحصل له، فإن نفسه تبقى طالبة لما تستريح به وتدفع به الغَمَّ والحزن عنها، وليس عندها من ذكر الله وعبادته ما تستريح إليه، فتظنّ أن راحتها في المحرَّمات من فعل الفواحش وشرب المسكرات وقول الزور واللهو والعبث ومخالطة قرناء السوء، ولا تطمئن نفسه إلا بعبادة الله».

قال ابن حزم: «وقد علم الله تعالى أن كل مسلم لولا خوف الله تعالى لأحب الأكل إذا جاع في رمضان، والشرب فيه إذا عطش، والنوم في الغدوات الباردة عن الصلوات، وفي الليل القصير عن القيام إلى الصلوات المندوبات، ووطء كل جارية حسناء يراها المرء، ولكن مخافة الله تمنع المؤمن من ذلك».

إن الخوف من الله تعالى ينتج عنه فوائد عظيمة، منها: ترك الذنوب والمعاصي، روى الحاكم بإسناده أن النبي ﷺ قال: «**النظرة سهم من سهام إبليس مسمومة، فمن تركها من خوف الله أثابه الله إيمانًا يجد حلاوته في قلبه، ومن ترك المعاصي خوفًا من الله أجر وأثيب**».

الخوف من الله سبب لرفع الدرجة في الجنة، قال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾[الرحمن: ٤٦] وقال: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾[النازعات: ٤٠-٤١]، وفي حديث السبعة الذين يُظِلّهم الله يوم القيامة: «**رجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله**».

من استحضر مخافة الله في دعائه كان ذلك من أسباب إجابة الدعاء، قال تعالى: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[الأعراف: ٥٦]، وقال: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝١٦ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٦-١٧].

مخافة الله سبب للتمكين في الأرض، قال تعالى: ﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ﴾[إبراهيم: ١٤].

مخافة الله سبب للاتعاظ والتذكر، قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥].

مخافة الله في قلب العبد تدفعه للإقدام على الطاعات، وفي الحديث: «**من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة**».

إذا استحضر المرء مخالفة الله في كل وقت دعاه ذلك لأن يكون مخلصًا لله في كل أعماله، من خاف الله لم يتكبر على خلقه، ولم يتجبر على عباده.

وخوف الله يحمل العبد إلى إعطاء أصحاب الحقوق حقوقهم، من خاف الله حقيقة لم يخف من غيره، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[آل عمران: ١٧٥] فإذا اتحد مصدر الخوف اطمأنت النفس، وفي بعض الآثار: «من خاف الله خَوَّفَ الله منه كل شيء، ومن لم يخف الله خوفه الله من كل شيء»، مخالفة الله سبب لمغفرة الذنوب، ففي الحديث: «**أن رجلًا وصى أبناءه بحرق بدنه وسحقه وذرِّه في الريح العاصف، فأمر الله بجمع**

بدنه، وقال له: ما حملك على ذلك؟ فقال: مخافتك يا رب، فغفر الله له ذلك»، لقد حرص سلف الأمة على الترغيب في الخوف والاتصاف به.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لو نادى مناد من السماء: أيها الناس إنكم داخلون الجنة كلكم إلا رجلًا واحدًا، لخفت أن أكون أنا هو».

قال الحسن البصري: «لقد مضى بين يديكم أقوامًا لو أن أحدهم أنفق عدد هذا الحصى لخشي ألا ينجو من عظم ذلك اليوم».

قال ابن مسعود: «إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه جالس في أصل جبل يخشى أن ينقلب عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مر على أنفه، فقال به هكذا فطار».

قال ابن عباس: «وعد الله المؤمنين الذين خافوا مقامه وأدوا فرائضه الجنة».

وقال عمر بن عبد العزيز: «من خاف الله أخاف الله منه كل شيء».

قال وهب بن منبه: «ما عُبد الله بمثل الخوف».

وقال الداراني: «أصل كل خير في الدنيا والآخرة الخوف من الله عز وجل، وكل قلب ليس فيه خوف فهو قلب خرب».

قال ابن تيمية: «الخوف المحمود ما حجزك عن محارم الله».

وقال بعضهم: «إذا سكن الخوف القلب أحرق مواضع الشهوات منه وطرد الدنيا عنه».

هذا والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد.

٨- الرجــــاء

الحمد لله الرؤوف الرحيم، المؤمل لكشف الملمات، والمرجو لرفع الدرجات، وأشهد أن لا إله إلا الله، نرجو رحمته، ونخاف من سوء أعمالنا، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا، أما بعد.

فإن من عبادات القلوب رجاء رحمة علام الغيوب، قال تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾[الإسراء: ٥٧].

وفي الصحيح يقول النبي ﷺ: «**لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه**»، ويقول: «**قال الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء**»، الرجاء في الله هو الأمل بأن يعفو الله عن ذنبك، وأن يعظم أجرك، وأن يرفع في الجنة درجتك، وأن يسلمك من نار جهنم، وأن ييسر لك الأسباب الحسنة في الدنيا بعد فعل الأسباب المؤدية لذلك.

قال ابن القيم: «الرجاء حَادٍ يحدُو القلوب إلى بلاد المحبوب وهو الله والدار الآخرة، ويطيب السير لها، وأجمع العارفون على أن الرجاء لا يصح إلا مع العمل، كرجاء مطيع لثواب ربه، أو رجاء تائب لمغفرته وعفوه، الرجاء ضروري للمريد السالك، والعارف لو فارقه لحظة لتلف أو كاد، فإنه دائر بين ذنب يرجو غفرانه، وعيب يرجو إصلاحه، وعمل صالح يرجو قبوله، واستقامة يرجو حصولها ودوامها، وقرب من الله، وعلو منزلة عنده يرجو وصوله إليها، الرجاء من الأسباب التي ينال العبد بها ما يرجوه من ربه، بل هو أقوى الأسباب، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَـٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَـٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾

[البقرة: ٢١٨] دليل على أن الرجاء لا يكون إلا بالقيام بالأعمال، وأما الرجاء المقارن للكسل فهو غرور وأمن من مكر الله، وهو دال على ضعف الهمة ونقص العقل، وفي الآية دلالة على أن العبد لا يعتمد على عمله، ولا يعول عليه، بل يرجو رحمة ربه.

حسن الظن وعظم الرجاء أحسن ما تزود به المؤمنون لقدومهم على ربهم جل وعلا، قوة الرجاء بالله أمان لكل خائف، ومما يدعو إلى زيادة الرجاء في الله وفي فضله التعرف على أسماء الله التي تجعل القلب يرجو رحمة الله جل وعلا، فهو سبحانه البر الرحيم، وهو سبحانه الغفور الرحيم، وهو سبحانه العفو الكريم، وهو سبحانه المحسن الحليم، وهو سبحانه المعطي الجواد، وهو سبحانه الوهاب الرزاق.

إذا علم العبد أن رحمة الله واسعة دعاه ذلك إلى أن يكون قلبه معلقًا برجاء الله، قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾[الأعراف: ١٥٦]، وفي الحديث الصحيح قال النبي ﷺ: «**لما قضى الله الخلق كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي غلبت غضبي**».

إن استشعار العبد لعبوديته لربه وفقره إليه وحاجته لما يرجوه من ربه، ويستشرفه من إحسانه، وأنه لا يستغني عن فضل الله وإحسانه طرفة عين، يدعوه ذلك كله إلى أن يملأ قلبه من رجاء الله تعالى.

إذا عرف العبد أن الله تعالى يحب العبد متى رجاه وسأله، فإنه سيكون من الراجين السائلين، وفي الحديث: «**من لم يسأل الله يغضب عليه**»، ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[غافر: ٦٠].

من أسباب تحصيل الرجاء: أن يشاهد العبد عِظَمَ فضل الله عليه، وعموم إحسانه عليه في نفسه وعلى غيره، فكم من نعمة أنعمها عليك ربك أيها العبد؟ وكم من خير أوصله إلى غيرك؟ قال تعالى: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُورًا﴾[الإسراء: ٢٨].

ومن أسباب تحصيل رجاء الله تعالى: أن يستحضر المؤمن وعد الله للمؤمنين بخيري الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلاً كَبِيرًا﴾[الأحزاب: ٤٧]، وقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾[الشورى: ٢٢].

ومن أسباب تحصيل العبد لرجاء الله تعالى: أن يعلم أن الله تعالى يغفر ذنوب العباد التائبين مهما تعاظمت، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾[الزمر: ٥٣] إذا لاحظ العبد سنة الله في الكون بنصر أوليائه المؤمنين ازداد قلبه رجاءً لله تعالى، ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾[الزمر: ٣٦]، ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥ﴾[الطلاق: ٣]، وإذا لاحظنا أن الله تعالى يجيب دعاء الداعين على اختلاف أزمانهم وأماكنهم، وعلى تنوع لغاتهم وألسنتهم زادنا ذلك رجاءً في الله تعالى، ثم إن الثمرات العظيمة التي تحصل من رجاء الله تعالى تدعونا إلى أن نملأ قلوبنا من رجاء الله، فمِنْ ثَمَرَات الرجاء: أن الرجاء من أسباب مغفرة الذنوب، كما ورد في الحديث القدسي: «**يا ابن آدم، إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي**».

الرجاء من أسباب رضا الله عن العبد ومحبته له وقربه منه.

الرجاء يُنَشِّط النفس على طاعة الله، فإن من عرف قَدْرَ مطلوبه هان عليه ما يبذله فيه، قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[الكهف: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[الزمر: ٩].

الرجاء يجعل العبد يتلذذ بأنواع الطاعات، فكلما طالع القلب ثمرات الطاعات وحسن عاقبتها الْتَذّ بها.

الرجاء يبث الطمأنينة في النفس ويُبْعِدُ عنها الوساوس والخطرات، ويهون عليها المصائب؛ إذ النفس ترجو من الله زوال ما حَلَّ بها من مصيبة، وبذلك يَقْوَى العبدُ على أعداء الله، قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُواْ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[النساء: ١٠٤].

لـولا التعلـق بالرجـاء تقطعـت ... نفـس المحـب تحـسرًا وتمزقـا
لولا الرجا يحدو المطي لما سرت ... يحـدو لهـم لـديارهم ترجـو اللقـا

رجاء الله، ورجاء ثوابه يحدو العبد إلى متابعة النبي الكريم ﷺ، والسير على طريقة عباد الله الصالحين، ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾[الأحزاب: ٢١]، ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾[الممتحنة: ٦].

الرجاء من أكبر أسباب تحصيل الأجور العظيمة، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَـٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾[فاطر: ٢٩-٣٠].

الرجاء سبب لتحصيل منافع الدنيا والآخرة، وفي الحديث: أن النبي ﷺ دخل على شاب وهو في الموت قال: «كيف تجدك؟» قال: والله يا رسول الله، إني لأرجو الله وإني أخاف ذنوبي، فقال ﷺ: **«لا يجتمعان في قلب عبدٍ في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو وأمَّنَهُ مِمَّا يخاف»** وما أعظم ما ينتج الرجاء من انتظار رحمة الله، وتوقّع فضل الله الذي يُعَلِّق القلب بالله، ويجعل اللسان يكثر من ذكر الله!

وانظر من مواقف الرجاء: موقف نبي الله يعقوب لما أخذوا أبناءه منه بأعذار واهية ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾[يوسف: ٨٣].

وانظر في مواقف أنبياء الله وأوليائه في أوقات الأزمات، والمحسنون يتلقون ذلك بصدر مُنْشَرِح، يرجون من الله الفرج، بل يرجون أن يكون ما نزل بهم سببًا للخير العميم.

أسأل الله جل وعلا أن يملأ قلوبنا وقلوبكم من رجائه سبحانه.

هذا، والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وأتباعه وسلم تسليمًا كثيرًا.

٩- التواضع

الحمد لله الذي خضع لعظمته الجبابرة، وذل لسطوته الظَّلَمَةُ والعُصَاةُ، وأشهد أن لا إله إلا هو سبحانه، لا ينازعه أحدٌ إلا قَصمَهُ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله أشد الناس تواضعًا حتى اختار أن يكون عبدًا رسولًا، لا ملكًا نبيًّا، وكان من تواضعه أنه يكون في خدمة أهله، وقال: «**لا تطروني؛ إنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله**» ﷺ تسليمًا، أما بعد.

فإن من أخلاق قلوب الصائمين: التواضع، والتواضع ألّا يرى الإنسان لنفسه على غيره فضلًا مهما عَلَتْ مَنْزِلَتُهُ، ومهما قَدَّمَ من إحسان لغيره. وقد فسر النبي ﷺ الكبر بأنه بطر الحق؛ أي: جَحْدُهُ، وغمط الناس؛ أي: احتقارهم.

ولا يصح للعبد درجة التواضع حتى يقبل الحق ممن يحب، وممن يبغض، فيقبله من عدوه كما يقبله من صديقه، وإذا لم تَرُدَّ عليه حقًّا، فكيف تمنعه حقًّا له قِبلك، ومن أساء إليك ثم جاء يعتذر من إساءته فإن التواضع يوجب عليك قبول معذرته؛ حقًّا كانت معذرته أو باطلة، وتوكل سريرته إلى الله تعالى، كما فعل رسول الله ﷺ في المنافقين الذين تخلَّفوا عنه في الغزو، فلما قدموا وجاءوا يعتذرون إليه، فَقَبِلَ أعذارهم ووَكَلَ سرائرهم إلى الله تعالى.

وعلامة التواضع والكرم أنك إذا رأيت الخَلَل في عذره فلا توقفه عليه ولا تُحَاجِّه، ولا تبين له كأنك اطلعت على كذبه في عذره.

إن أعظم درجات التواضع أن تتواضع مع الله بأن تَعْرِفَ مقدار نفسك، وأن تستجيب لأمر ربك طاعة له سبحانه، لا استجابة لعادة، ولا تحقيقًا لهوى ومحبة، فلا

ترى لنفسك حقًّا على الله لأجل عملك، وإنما تتواضع لربك بأن تَعْرِف أن الله جل وعلا قد تَكَرَّمَ عَلَيْكَ.

لقد أمر الله تعالى بالتواضع في آيات قرآنية عديدة، وجاء الأمر بالتواضع في أحاديث كثيرة، ومما ورد في ذلك قول الله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨]، وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾[الإسراء: ٣٧]، وقوله جل وعلا: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[لقمان: ١٨]، وقال سبحانه: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾[الفرقان: ٦٣] قال ابن عباس: «بالعفاف والطاعة والتواضع».

وفي الحديث يقول رسول الله ﷺ: **«إن الله أوحى إليَّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحدٌ على أحد، ولا يبغي أحدٌ على أحد»** رواه مسلم، وقال ﷺ: **«ما تواضع أحدٌ لله إلا رَفَعَهُ الله»** أخرجه مسلم.

وفي حديث أبي سعيد الخدري عند ابن حبان، أن النبي ﷺ قال: **«من تواضع لله دَرَجَةً رَفَعَهُ الله درجة حتى يجعله في أعلى عليين، ومن تكبَّر على الله درجة وضَعَهُ الله دَرَجَةً حتى يجعله في أسفل سافلين، ولو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ليس عليه باب ولا كُوّة لخرج ما غَيَّبَهُ للناس كائنًا ما كان»**.

في التواضع مصلحة الدين والدنيا، فإن الناس لو استعملوا التواضع في الدنيا لزالت بينهم الشحناء، ولاستراحوا من تعب المباهاة والمفاخرة.

التواضع هو سُلَّمُ الشرف.

وثمرة التواضع انتشار المحبة في قلوب الخلق؛ فَمَنْ تَوَاضَعَ للناس أحبوه، وأحبه الله تعالى.

مِنْ أحْسَنِ الأخلاق أن تكون سَجِيَّةُ العبد التواضع، ومن أحسن الأفعال الإحسان إلى من أساء إليك.

قوله ﷺ: «**تواضعوا حتى لا يَفْخَرَ أحد على أحد**» يبيِّن أن التواضع المأمور به يضاد البغي والفخر، التواضع ضد التكبر، وسبب التواضع شيئان: التحقّق بمقام العبودية لله، ومعرفةُ الإنسان بعيوب نفسه.

قال ابن حجر: «الأمر بالتواضع نهي عن الكبر فإنه ضده»، وفي الصحيح مرفوعًا قال النبي ﷺ: «**قال الله عز وجل: الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، من نازعني واحدًا منهما ألقيتُهُ في جهنم**»، وقد قال الله تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾[البقرة: ٨٧]، فالكبر سبب لِرَدِّ الحق، وعدم قبوله، قال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾[الأعراف: ١٤٦]، وقال سبحانه: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[الجاثية: ٧-٨].

الكبر من أسباب غضب الرب على العبد، وعدم محبته له، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾[النحل: ٢٣].

الكبر من أسباب نزول العقاب، قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾[النساء: ١٧٣]، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[الأعراف: ٣٦]، وقال: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ

﴿ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾[الأنعام: ٩٣]، وقال: ﴿فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [النحل: ٢٩].

وفي الحديث: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**».

المتكبر ذَليل يوم القيامة؛ ففي السنن أن النبي ﷺ قال: «**يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال يغشاهم الذل من كل مكان**»، وفي الصحيح: «**بينما رجل يتبختَرَ في بُرْدَيْهِ قد أعجبته نفسه، فخسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة**»، وقال: «**من جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة**».

وانظر إلى إبليس لما تكبَّر أُخرج من الجنة وغضب الله عليه، قال تعالى: ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّـٰغِرِينَ﴾[الأعراف: ١٣]، أما عن مظاهر الكبر وترك التواضع، فمنها رؤية الإنسان لنفسه أنه أفضل من غيره، وترفعه عن من يماثله، وتقدُّمه على أقرانه، ومن مظاهِرِهِ: المفاخرة ومَدْحُ الإنسان لنفسه.

يحسن بالمسلم أن يكون صيامه من أسباب تواضعه بين يدي الله، وتواضعه لعباد الله، فإن الذي منع العبد من بعض النعم بالصوم، قادر على سلب النعم كلها بالكبر وعدم التواضع.

الصوم يجعل الذهن يخلو من المشغلات عن التفكير، فيتأمل الإنسان في أصل خلقته، ويتأمل مدى ضعفه وقدرة الله عليه، ويتأمل مساواته لغيره في أحكام الله، فكيف يتكبَّر على من كان مساويًا له؟! ويتذكر وقوفه بين يدي الله ومحاسبته له على أعماله، ويتأمل في حسن عاقبة التواضع وسوء عاقبة الكبر.

قالت عائشة رضي الله عنها: «تغفلون عن أفضل العبادة: التواضع».

أسأل الله جل وعلا أن يجعلنا وإياكم من المتواضعين، والبعد عن التكبُّرِ وأهله.

هذا، والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

١٠- التسليم للنصوص الشرعية وعدم معارضتها

الحمد لله الذي أنزل كتابه ليكون حجة على العالمين، فمن آمن به وسَلّم له وانْقَادَ لأمره كان من الناجين ومن المفلحين، ومن عارَضَهُ ولم يستجب له كان من المستحقين للعقوبات الشديدة دنيا وآخرة، والصلاة والسلام على عبده ورسوله المذعن لأمر ربه، أما بعد.

فإن من أعظم أعمال القلوب أجرًا وثوابًا: التسليم للنصوص الشرعية وعدم معارضتها، وليكن من أسهل الأمور على العبد ألا يَقْبَلَ قلبُهُ ما يخالف الكتاب والسنة، سواء كان رأيًا له، أو قولًا لغيره.

قال الإمام الشافعي: أجمع المسلمون على أن مَنِ استبانت له سنة رسول الله ﷺ لم يَحِلّ له أن يدعها لِقَوْلِ أحد.

وقال عمر بن عبد العزيز: لا رأي لأحد مَعَ سُنّة سَنَّهَا رسول الله ﷺ.

وقال ابن عباس: يوشك أن تنزل عليكم حِجَارَةٌ من السماء، أقول: قال رسول الله ﷺ، وتقولون: قال أبو بكر وعمر؟!

وهناك نقولات عديدة عن كثير من السلف الصالح تؤكد على التشديد فيما إذا ترك المرء النصوص الشرعية وعارضها بالرأي أو بتقليد الرجال، ومن هنا فإنه يجب على كل مؤمن أن ينقاد لما جاء به الرسول ﷺ، وأن يستسلم له، وأن يُذْعِنَ له، فلا يعارض النصوص الشرعية بما يسمى المعقولات كما يقوله بعض المتكلمين الذين يجهلون حقيقة بعض الأمور، ثم يزعمون أن العقل يدل على نفيها.

وكذلك لا يعارض المؤمن النصوص الشرعية بالأقيسة الفاسدة، ولا يعارض النصوص بما يقع في النفس أنه أمر الله كما يفعله بعض المتصوفة ويسمونه إلهاما، ولا

يعارض النصوص الشرعية بما يزعم بعضهم أنه السياسة وإصلاح أحوال العامة كما يفعله بعض أصحاب الولايات، فإن أعلى درجات السياسة، وأعلى ما يصلح أحوال الخلق هو اتباع النصوص الشرعية.

فإذا ورد عليك دليل شرعي أيها المؤمن فسلِّم له، ولا تتهم الدليل، ولا تصادمه بعقل ولا بقياس ولا بسياسة، ومتى عرض لك شيء من ذلك فاتَّهِم فَهَمَكَ، ولتعرف بأن السبب منك، وكذلك يجب على المؤمن أن يقدم النصوص الشرعية على آراء الرجال، بحيث لا تخالف يا أيها المؤمن أي نص شرعي لا بباطنك ولا بظاهرك، لا بقلبك ولا بلسانك ولا بجوارحك، لا بفعلك ولا بحالك.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[الأحزاب: ٣٦]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾[النور: ٥١]، وقال سبحانه: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾[النساء: ٦٥]، وقال جل وعلا: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾[الأعراف: ٣]، وقال جل وعلا: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا﴾[طه: ٩٩-١٠١].

إن النصوص الشرعية قد احتوت على المعاني العظيمة والمصالح الكبيرة، لكن إذا لم يُذْعِنِ العبد لها فلن يعرف مقدارها، ولن تتضح له معانيها، ولن يفتح الله قَلْبَهُ

لِفَهمِ أسرارها، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾[طه: ١٢٤].

تلا الإمام أحمد قوله سبحانه: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[النور: ٦٣] فقال: أتدري ما الفتنة؟ الفتنة الشرك، لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ، فيزيغ قلبه فيهلك.

إن ترك التسليم للنصوص الشرعية، وعدم اعتقاد ما تضمنته إنما ينشأ من اتباع الهوى وطاعة الشيطان، وذلك من أسباب الضلال، اسمع الله تعالى يقول: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَـٰهُ بِهَا وَلَـٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ﴾[الأعراف: ١٧٥-١٧٦]، وقال الله جل وعلا: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَـٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[المائدة: ٤٩-٥٠]، وقال سبحانه: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَـٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[الجاثية: ١٨].

صاحب الهوى يعميه الهوى ويصمه، فلا يستحضر ما لله، ولا ما لرسوله في الأمر ولا يطلبه أصلًا، ولا يرضى لرضا الله ورسوله، ولا يغضب لغضب الله ورسوله، فليس قصده أن يكون الدين كله لله، وأن تكون كلمة الله هي العليا، بل

قصده الحمية لنفسه أو طائفته أو الرياء ليَعْظُمَ هو ويُثْنَى عليه، أو لغرض من الدنيا، فلم يكن لله غضبه، ولم يكن مجاهداً في سبيل الله، وجميع المعاصي تنشأ من تقديم هوى النفوس على محبة الله ورسوله.

إن ترك النصوص مع اتباع الهوى من أنواع الضلال، كما قال جل وعلا: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾[الأنعام: ١١٩]، وكما قال: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[القصص: ٥٠] وقال: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[الجاثية: ٢٣].

جاء في حديث أبي برزة أن النبي ﷺ قال: «**إن مما أخشى عليكم شهوات الغي في بطونكم وفروجكم ومُضِلّات الهوى**». وفي حديث أنس: «**ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوًى متبع، وإعجاب المرء بنفسه**».

موسم رمضان من أحسن المواسم لربط القلوب بالقرآن والسنة، قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾[البقرة: ١٨٥].

وكان النبي ﷺ يدارس جبريل القرآن في كل ليلة من ليالي رمضان، فإن قيل: ما الحكمة في مُدَارَسَتِهِ القرآن في رمضان؟ قال العيني: ذلك لتجديد العهد واليقين.

هذا، والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وعلى أهله وأصحابه أجمعين.

١١- الخشوع لله

الحمد لله عظيم الشأن، تخشع القلوبُ لعظمته، وتذِل الجوارح لسطوته، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد.

فإن من أعظم عبادات قلوب الصائمين وغيرهم: الخشوع لله، وكان من دعاء النبي ﷺ: «**اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، وقلب لا يخشع**».

الخشوع: قيام القلب بين يدي الرب بالخضوع والذل، وفي الحديث، أن النبي ﷺ ذكر أن من صفات المؤمنين الخشوع.

الخشوع: خضوع القلب وطُمَأْنينته وسكونه لله، وانكساره بين يدي الله ذلًّا وافتقارًا وإيمانًا به وبلقائه.

الخشوع: معنىً يلتئم من التعظيم والمحبة والذّل والانكسار، أجمع العارفون على أن الخشوع محله القلب وثمرته على الجوارح وهي التي تُظْهِره.

الخشوع: اتصاف القلب بالذلة والاستكانة، والرَّهْبِ بين يدي الرب، جاء في حديث ابن عمر في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ﴾[المؤمنون: ٢]، قال: «كانوا إذا قاموا في الصلاة أَقْبَلُوا على صلاتهم، وخَفَضُوا أَبْصَارَهُمْ إلى موضع سجودهم، وعلموا أن الله يُقْبِل عليهم، فلا يَلْتَفِتُون يمينًا ولا شمالًا».

قال الحسن البصري: «كان خشوعهم في قلوبهم، فغَضُّوا لذلك أبصارهم، وخفضوا لذلك الجناح».

وقال قتادة: «الخشوع في القلب: هو الخوف وغَضُّ الْبَصَرِ في الصلاة».

الخشوع: هو السكون والطمأنينة، والتؤدة والوقار والتواضع، والحامِلُ عليه الخوف من الله تعالى ومراقبته.

ويتضمن الخشوعُ معنيين: أحدهما: التواضع والذل، والثاني: السكون والطمأنينة، ولذلك فإن الخشوع يستلزم لِين القلب المنافي للقسوة، فخشوع القلب يتضمن عبودية الله، وطمأنينة القلب بالله، ولهذا كان الخشوع في الصلاة يتضمن التواضع والسكون.

الخشوع حالة في القلب تنشَأ من الخوف والمراقبة، والتذلّل لعظمة المولى، ويَظْهَرُ أثَر الخشوع على الجوارح بالسكون والإقبال على الله تعالى، وعدم الالتفات إلى غيره مما يورث البكاء والتضرع.

أثنى الله على الخاشعين في صلواتهم فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾[الإسراء: ١٠٧-١٠٩]، قال في السراج الوهاج: «الخشوع في الصلاة: لين القلب وكف الجوارح، فيستحضر المصلي أنه واقف بين يدي ملك الملوك يناجيه، وأنه ربما رد صلاته ولم يقبلها».

الخشوع هو روح الصلاة، وبه يتفاوت أجرها، كما ثبت في الحديث أن الرجل يصلي فيكون له من صلاته نصفها، ثلثها، ربعها... الحديث، وما ذاك إلا لتفاوت المصلين من جهة الخشوع وحضور القلب، وقطع النظر عن ما سوى الله جل وعلا، وإذا كانت الجبال تخشع من خشية الله، فكيف بابن آدم، قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[الحشر: ٢١].

الخشوع من صفات الأنبياء، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾[الأنبياء: ٩٠].

الفلاح والنجاح معلَّق على الخشوع في الصلاة، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾[المؤمنون: ١-٢].

وقد عَدَّ الله الخشوع من صفات الذين أعد الله لهم مغفرة وأجرًا عظيمًا في قوله: ﴿وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ﴾[الأحزاب: ٣٥].

أنبياء الله وأولياؤه يتصفون بصفة الخشوع، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾[الأنبياء: ٩٠].

عاب الله على أولئك الذين لا يخشعون، فقال سبحانه: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾[الحديد: ١٦].

الخاشعون تَسْهُلُ عليهم الطاعات كما قال سبحانه: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾[البقرة: ٤٥]؛ وذلك لأن الخشوع وخشية الله ورجاء ما عنده يوجب للعبد أن يفعل الطاعة منشرحًا صدرُهُ لما يترتب على ذلك من ثواب عظيم.

الخشوع في الصلاة سبب لتكثير الأجر الحاصل بها، وفي صحيح مسلم، أن النبي ﷺ قال: «**ما مِن امرئ مسلم تحضره صلاة مكتوبة فيُحْسِن وضوءها وخشوعها وركوعها إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب ما لم يأت كبيرة، وذلك**

الدهر كله»، وفي السنن: «**مَثَلُ المجاهد في سبيل الله، والله أعلم بمن يجاهد في سبيله، كمثل الصائم القائم الخاشع الراكع الساجد**».

الخشوع في الصلاة: حضور قلب المصلي بين يدي الله مستحضرًا لِقُرْبِه، فيسكن لذلك قلبه، وتسكن حركاته، ويَقِل التفاته، ويَسْتَحضر معاني ما يقوله ويفعله في صلاته، فتَنْتَفِي عنه الوساوس.

التعظيم لأمر الله يكون بالخشوع والتواضع، وذلك أصْلُ التقوى، وأصْل الرحمة لعباد الله بالإحسان إليهم، وهذان هما حقيقة الصلاة والزَّكَاةِ، فإن الصلاة مُتَضَمنة للخشوع لله والعبودية له والتواضع والذل له، وليس كل من صَلّى ببدنه يكون قلبه منوَّرًا بذكر الله والخشوع وفهْمِ القرآن، وإن كان يُثَاب على صلاته، ويسقط عنه الفرض في أحكام الدنيا، وكل من خَشَعَ قلبُهُ خَشَعَتْ جوارحه.

فيا أيها المؤمن، إذا أرَدتَ الخشوع فاسأل الله أن يأتيَكَ إياه، والْتَزِم بآداب العبادات لتخشع فيها، فإذا قرأت فالتزم بآداب قراءة القرآن، وإذا صَلَّيْتَ فالْتَزِم بأحكامها وآدابها، وإذا دَعَوْتَ فالتزم بآداب الدعاء لتخشع فيه.

ومن أسباب الخشوع: استحضار العبد أنه بين يَدِي ربِّه مع تَفَكُّرِه في معاني ما يقرأه، مع اجتنابه ما يشغله.

إذا أردت أن تعرف هل في قلبك خشوع لله، فانظر إلى قلبك عند ذكر الله وسماع آيات القرآن هل يوجَلُ قلبك لذكر الله؟ وهل يخاف؟ قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[الزمر: ٢٣].

وصوم رمضان يفرغ القلب للخشوع لله، وشهر رمضان موسم للصلاة التي يَعْظُمُ أجْرُهَا ويَبْقَى أثرها لحصول الخشوع فيها، وشهر رمضان مَوْسِمٌ للدعاء الذي يستجاب للخاشع فيه.

هذا، والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

١٢- الاعتراف بفضل الله ونعمه

الحمد لله المنعم المتفضل، أنعم علينا فأجزل، وأعطانا فأكثر، ما أعظم منة الله علينا! وما أكثر فضائله الواصلة إلينا! ومن أعظم نعم الله علينا أن جعلنا من أتباع محمد ﷺ، أما بعد.

فإن من أعمال القلوب: الاعتراف بفضل الله ونعمه، وخصوصًا بما أنعم الله علينا في شهر رمضان من إنزال كتابه، ومن تعظيم الأجر والثواب على الأعمال فيه، ومن وجود ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر، وقد ذكَّرنا الله بنعمه في مواطن عديدة من كتابه، كما قال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَـٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾[لقمان: ٢٠]، وقال: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢]، وقد أمرنا الله تعالى بتذكُّر نعمه، فقال سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾[فاطر: ٣]، وقال: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَـٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾[المائدة: ٧]، فأمر الله المؤمنين بتذكر نعمه الدينية والدنيوية، ومن ذلك تذكّر هذه النعم بالقلوب، وبذلك يزول إعجاب الإنسان بنفسه، ويعرف أن ما عنده من النعم فإنه فضل من الله جل وعلا.

ومن نعم الله العظيمة التي أنعم بها علينا أن جعلنا من أهل الإسلام والقرآن، فلا بد أن يعرف القلب ذلك، وأن يفرح به، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[يونس: ٥٧-٥٨]، وأعظم ذلك: نعمة التوحيد بإفراد الله بالعبادة، وعدم صرف شيء منها لغير الله، كما قال

تعالى عن يوسف عليه السلام: ﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾[يوسف: ٣٨].

وقد كرر الله في كتابه التذكير بأن الله وحده هو الذي ينفرد بجلب النعم ودفع النقم، ومن عرف أن النعم كلها الظاهرة والباطنة، القليلة والكثيرة إنما يتفضل الله بها وحده، وأنه ما من نعمة إلا منه، ولا من نقمة ولا شدة ولا كربة إلا والله هو المنفرد بدفعها، وأن الخلق لا يملكون لأنفسهم فضلًا عن غيرهم جلب نعمة، ولا دفع نقمة، من عرف ذلك كان من عُبَّاد الله جل وعلا بقلبه، قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[يونس: ١٠٧]، وقال: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ﴾[فاطر: ٢]، وقال: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ﴾[النحل: ٥٣].

والمؤمن معترف بأن الله هو الذي أَوْجَدَهُ من العَدَمِ، وأمدَّهُ بأسباب الحياة، وواصل عليه النعم، ونَقَلَهُ من طور إلى طور، حتى سوَّاه وجعله رجلًا كامل الأعضاء والجوارح المحسوسة والمعقولة، وبذلك يَسَّرَ له من الأسباب، وهيأ له من نعم الدنيا، ولم يحصل ذلك بقوة العبد ولا بقدرته ولا بحيلته، بل حَصَلَ بنعمة من الله وفضل، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[الضحى: ١١] أي: فليتحدث القلب واللسان بنعم الله تعالى، وقال: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ﴾[إبراهيم: ٥]، قال ابن عباس: «بنعم الله». وجاءت النصوص تُحذِّر من الاغترار بنعم الله، وإمهال الله للعبد، قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾[هود: ١٠]، وقال: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا

بِجَانِبِهِۦ﴾[فصلت: ٥١]، وقال: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[الحديد: ٢٣]؛ أي: متكبر معجب بنفسه، فخور بنعم الله، ينسبها إلى نفسه، وتطغيه وتلهيه تلك النعم، كما أن العبد يحذر من إضافة نعم الله إلى من كان سببًا فيها؛ لأن السبب لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا، ولا يستقِلُّ بإيجاد تلك النعم، قال الله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾[النحل: ٨٣] فإنهم لما أضافوا النعمة إلى غير الله فقد أنكروا نعمة الله بنسبتها إلى غيره، فإن الذي يقول هذا جاحد لنعمة الله عليه، غير معترف بها، فهو كالأبرص والأقرع اللذين ذكَّرَهُمَا المَلَك بنعم الله عليهما فأنكراها وقالا: «إنما ورثنا هذا كابرًا عن كابر»، وكون النعم موروثة عن الآباء أبلغ في إنعام الله عليهم؛ إذ أنعم بها على آبائهم، ثم أورثهم إياها، فتمتَّعوا هم وآباؤهم بنعم الله.

إن اعتراف القلب بفضل الله يُكْسِبُ رضا الله ومحبته. اعتراف القلب بفضل الله من أسباب حفظ النعمة وزيادتها وعدم زوالها، فيحْسُن أن تعالج القلوب غير الشاكرة بأن تَعْرِفَ وتُعرَّف بأنَّ النعمة إذا لم تُشْكَرْ زالت ولم ترجع.

قال الفضيل بن عياض: «عليكم بملازمة الشكر على النعم؛ فقَل نعمة زالت عن قوم فعادت إليهم، والنعم كالحيوانات الوحشية لا يمكن تقييدها إلا بالشكر».

إن اعتراف القلب بأن النعم من الله يوجب تعلق القلب بالله ومحبته له، والتأله له وحده لا شريك له.

إن اعتراف القلب بنعم الله ركنٌ من أركان شكر نعم الله، وفي الخبر: «من أُسْدِيَتْ إليه نعمة فذكرها فقد شكرها، ومن سترها فقد كفرها»، وقد أمر الله بشكر النعم فقال: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾[البقرة: ١٥٢]، وقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[البقرة: ٥٢].

إن عدم اعتراف القلب بنعمة الله على العبد سَبَب من أسباب نزول العقوبات الدنيوية، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ۝ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[الأنعام: ٤٤-٤٥].

اعتراف القلب بنعم الله يكون على الإجمال بمعرفة أن جميع النعم من الله، واعتراف القلب بنعم الله يكون بالاعتراف بما حضر في القلب من نِعَم الله؛ لأنها تفضُّلٌ منه سبحانه؛ لأن القلب لا يتمكن من الإحاطة بنعم الله؛ لأن نعم الله كثيرة، وأقسامها واسعة عظيمة، وقدرات العبادة قاصرة عن الإحاطة بمبادئ نعم الله، فضلًا عن غاياتها وكمالها، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾[النحل: ١٨]، فيدل هذا على أن العباد لا يعرفون نعم الله على سبيل التمام والكمال، وإذا كان كذلك فلن يتمكنوا من الاعتراف بجميع تلك النعم، وهذا يدل على أن طاعة العبد وشكره لن توازي نعم الله على العبد، ولينظر الإنسان في بدنه كم من جزء لا يعرف المرء نعمة الله عليه فيه إلا إذا ظهر فيه أدنى خلل يجعله يتنغص في عيشه، ويتمنى إنفاق جميع الدنيا لإزالة ذلك الخلل، مع أن الله تعالى يدبر أحوال الإنسان على الوجه الأكمل والأصلح، ومع أن الإنسان لا علم له بوجود ذلك الجزء، ولا بكيفية جلب مصالحه، ولا كيفية دفع مفاسده.

ومن أسباب جَعْلِ العبد يعترف بنعم الله عليه: أن يتفكر في أحوال أولئك الذين سُلِبَت نعم الله منهم من المرضى والفقراء، وأهل المعاصي، وكيف أن الله جل وعلا تَفَضَّلَ على العبد فلم يجعله مماثلًا لهؤلاء الذين سُلِبَتْ منهم نِعَم الله جل وعلا، ولذلك على العباد أن يعترفوا بأن الخيرات والنعم الواصلة إليهم هي فضل

من الله جل وعلا، وأنه سبحانه هو المتكرم بها، وأنها لم تحصل بسبب من العبد، وأنها لم تحصل بفعل العبد، وإنما حصلت بكرم من رب العزة والجلال.

أسأل الله جل وعلا أن يجعلنا وإياكم من الشاكرين لنعمه، المعترفين بها ممن كانت قلوبهم تضيف تلك النعم إلى الله وحده.

هذا، والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

١٣- التفاؤل

الحمد لله فارج الكربات، وأشهد أن لا إله إلا الله مجيب الدعوات، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله عليه أتم التسليم وأفضل الصلوات، أما بعد.

فإن من أعمال قلوب الصائمين التي يتقربون بها لله أن يتفاءلوا، بحيث يتفاءل المرء بأن يغفر الله له في هذا الشهر الكريم شهر رمضان، ويتفاءل بأن يُسْتَجاب له دعاؤه، ونَتَفَاءل أيضًا أن يُمَحِّصَ الله ذنوبنا في شهر رمضان، وأن يتقبَّل الله منا عباداتنا، إذا أمل الناس في فضل الله، ورجوا إحسانه جل وعلا عند كل سبب ضعيف أو قوي فهم على خير، ولو غلطوا في جهة الرجاء، فإن الرجاء خير لهم، وإذا قطع العباد أملهم من الله، وقطعوا رجاءهم من الله، كان ذلك من أعظم الشر عندهم، وقد جاء في الحديث أن النبي ﷺ قال: «**قال الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء**»، وجاء في الصحيح أن النبي ﷺ قال: «**لا طيرة وخيرها الفأل. قالوا: وما الفأل؟ قال: الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم**»، وفي الحديث: «**لا طيرة وأحب الفأل الصالح**».

وفي الترمذي أن رسول الله ﷺ كان يعجبه إذا خرج لحاجة أن يسمع: يا راشد، يا نجيح. وفي السنن من حديث بريدة أن النبي ﷺ كان لا يتطير من شيء، وكان إذا بعث عاملًا سأل عن اسمه، فإذا أعجبه فرح به، ورئي بشر ذلك في وجهه، وإذا دخل قرية سأل عن اسمها، فإن أعجبه اسمها فرح بها ورُئِيَ بشر ذلك في وجهه.

وفي صحيح مسلم أن النبي ﷺ قيل له: «**منا رجال يتطيرون. فقال: ذلك شيء يجدونه في صدورهم فلا يصدنهم**». وجاء في الصحيح أن النبي ﷺ قد ذكر

أن سبعين ألفًا من أمة محمد ﷺ يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، وقد وصفهم النبي ﷺ بأنهم لا يسترقون ولا يتطيرون ولا يكتوون، وعلى ربهم يتوكلون، فقوله: ولا يتطيرون: أي لا يتشاءمون، فإذا نُهِيَ عن التشاؤم دل ذلك على مشروعية ضده ألا وهو التفاؤل، وليس في الإعجاب بالفأل ومحبته شيء من الشرك، بل ذلك إبانة عن مقتضى الطبيعة، ومن حب الفطرة الإنسانية التي تميل إلى ما يوافقها ويلائمها، والله تعالى قد جعل في غرائز الناس الإعجاب بسماع الاسم الحسن ومحبته وميل نفوسهم إليه، وكذلك جعل فيها الارتياح والاستبشار والسرور باسم الفلاح والسلام والنجاح والتهنئة والبشرى والفوز والظفر، ونحو ذلك.

فإذا قرعت هذه الأسماء الأسماع استبشرت بها النفس، وانشرح لها الصدر، وقوي بها القلب، وإنما كان ﷺ يعجبه الفأل؛ لأن التشاؤم سوء ظن بالله تعالى بغير سبب محقق، أما التفاؤل فإنه حسن ظن بالله سبحانه وتعالى.

والمؤمن مأمور بحسن الظن بالله تعالى على كل حال، وإذا كان التفاؤل محبوبًا محمودًا عند الله عز وجل، فإن الذي يقابله التشاؤم وهو من الأمور المذمومة، ومن أمثلة ذلك: أن يتشاءم الإنسان بالأعداد أو الطير أو المرضى، وهذا من الأمور المحرمة في الشرع، والتطيّر إنما يضر من أشفق منه وخاف، وأما من لم يبال به، ولم يعبأ به شيئًا فإنه لا يضره البتة، والطيرة باب من أبواب الشرك، ومن إلقاء الشيطان الوساوس في قلوب العباد، فهو من إلقاء الشيطان وتخويفه ووسوسته، ولهذا يعظم شأنه، ويكبر عند من يكثر العناية به، فمن تَطَيَّرَ زاده التطير شرًا وشؤمًا، والمتطير متعب القلب، مُنكَّد الصدر، كاسف البال، سيئ الخلق، يتخَوَّف من كل ما يراه

ويسمعه، فهو أشد الناس وجلًا، وأنكدهم عيشًا، وأضيقهم صدرًا، وأحزنهم قلبًا، كم حَرَم نفسه بذلك من حظ؟! وكم منعها من رزق؟! وكم قطع عليها من فائدة؟!

واعلم بأنه ليس شيء أضر بالرأي ولا أفسد بالتدبير من اعتقاد الطيرة، ومن ظن أن خوار بقرة، أو نعيب غراب يرد قضاء، أو يَدْفَع مقدورًا فقد جهل.

وفي السنن: «**الطيرة شرك**»، وفي المسند: «**مَنْ رَدَّته الطيرة من حاجة فقد أشرك**»، وقد عاب الله تعالى على بعض الأمم السابقة بالتطير، فقال سبحانه: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨]، وقال: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٣١]، وقوم صالح: ﴿قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾[النمل: ٤٧] فكان عاقبتهم سوء العاقبة دنيا وآخرة، وأصحاب القرية ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ﴾[يس: ١٨] فرد عليهم أنبياؤهم: ﴿قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾[يس: ١٩].

وعلاج الطيرة يكون بحسن التوكل على الله، والاعتماد عليه، ومعرفة أنه لا يحدث شيء إلا بتقدير الله وخلقه، وأن القدر سابق على هذه الحادثة التي تشاءموا منها.

خرج عمر بن عبد العزيز في سفر فقيل له: القمر في الدبران، وكانوا يتشاءمون من ذلك، فقال: «إنا لا نخرج بشمس ولا بقمر، ولكنا نخرج بالله الواحد القهار».

التطير ينافي التوكل، ويدل على قلة العقل، ويورث اضطراب النفس، ويؤدي إلى الكسل وترك العمل، وكثرة الفشل، التطير سيئ العاقبة دنيا وآخرة.

فيا أيها المؤمنون اجتنبوا التطير في جميع شئونكم، واتصفوا بصفة التفاؤل في كل أحوالكم، والله جل وعلا عند حسن ظنِّ عبده به، والله جل وعلا قد عَوَّدَكم الجميل، وبَيَّنَ لكم أنه ينصر أولياءَهُ المؤمنين، فتفاءلوا بنصر الله تجدوه.

هذا، والله جل وعلا أسأل أن يوفقنا وإياكم لخيري الدنيا والآخرة، وأن يُصْلِحَ أحوالنا جميعًا، وأن يردنا إلى دينه ردًّا حميدًا.

هذا، والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

١٤- الإنابة

نحمد الله بقلوبنا، وننيب إليه بأفئدتنا، ونصلي ونسلِّم على رسول الله المنيب إلى ربه، أما بعد.

فإن من عبادات القلوب: الإنابة إلى علام الغيوب، والإنابة: إقبال القلب على الله عز وجل وحده، وانجذاب دواعي القلب لمراضي الله.

قال قتادة: «المنيب: التائب المقبل على الله».

وقال ابن زيد: «الإنابة: هي الرجوع إلى الطاعة والنزوع عما يضادها من معاصي الله».

ومن أنواع العبادة: الإنابة، وهي التوجه إلى الله، وهي التوبة النصوح، وهي الرجوع إلى الله تعالى، وفي المسند من حديث جابر رضي الله عنه مرفوعًا: «**لا تمنَّوْا الموت فإن هول المطلع شديد، وإن من السعادة أن يطول عمر العبد ويرزقه الله الإنابة**».

إنابة أولياء الله هي إنابة لإلهيته، إنابة عبودية ومحبة، وتتضمن أربعة أمور: محبة الله، والخضوع له، والإقبال عليه، والإعراض عما سواه؛ فلا يستحق اسم المنيب إلا من اجتمعت فيه هذه الأربع خلال.

الإنابة: هي عكوف القلب على الله عز وجل، كاعتكاف البدن في المسجد لا يفارقه، وحقيقة ذلك عكوف القلب على محبة الله وعلى ذكره بالإجلال والتعظيم له، مع عكوف الجوارح على طاعته بالإخلاص له والمتابعة.

كثيرًا ما يتكرر في القرآن ذكر الإنابة والأمر بها، والإنابة: هي الرجوع إلى الله، وانصراف دواعي القلب وجواذبه إليه، وهي تتضمن المحبة والخشية؛ فإن المنيب محب لمن أناب إليه، خاضع إليه، خاضع له، خاشع ذليل، وقد أمر الله عز وجل

بالإنابة، وحث عليها كما قال سبحانه: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾[الزمر: ٥٤].

الإنابة إلى الله صفة أولياء الله وأنبيائه وأصفيائه، قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾[هود: ٧٥]، وقال شعيب: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[هود: ٨٨].

الإنابة إلى الله سبب من أسباب صفاء الذهن، وقدرته على الاعتبار والتفكر، فإن الله تعالى لما ذكر الآيات الكونية في سورة «ق» ذكر منها: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾[ق: ٦] إلى قوله سبحانه: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾[ق: ٨]، فالعبد المنيب ينفعه الله جل وعلا بالذكرى.

وقال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾[غافر: ١٣]، وقال: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾[سبأ: ٩].

الإنابة إلى الله من أسباب دخول الجنة، قال تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ۝٣١ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ۝٣٢ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ۝٣٣ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾[ق: ٣١-٣٤].

الإنابة إلى الله سبب للهداية، وطريق من طرق الاستقامة، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾[الرعد: ٢]، وقال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾[الشورى: ١٣].

صلاح القلب وفلاحه وسعادته معلق بالإنابة إلى الله.

الإنابة إلى الله سبب لخيري الدنيا والآخرة، وقد بشر الله تعالى أصحاب الإنابة، فقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾[الزمر: ١٧].

وقد ذكر الله في كتابه العظيم في غير موضع أن من تمام نعمة الله على عباده المؤمنين أن ينزل بهم الشدة والضر مما يلجئهم إلى توحيده، فيدعون الله مخلصين له الدين، ويرجون الله جل وعلا لا يرجون أحدًا سواه، وتتعلق قلوبهم بالله وحده لا بغيره، وحينئذٍ يحصل لهم من التوكل عليه، ومن الإنابة إليه، ومن حلاوة الإيمان، وذوق طعمه والبراءة من الشرك ما هو أعظم نعمة عليهم من زوال المرض أو الخوف أو الجدب، أو حصول اليسر وزوال العسر في المعيشة، فإن تلك الأمور لَذَّات بدنية ونِعَم دنيوية، قد يحصل للكافر منها أعظم مما يحصل للمؤمن، وأما ما يَحْصُل لأهل التوحيد المخلصين في دينهم فأَعْظم مِنْ أن يتَمَكَّن امرؤٌ من الحديث عن وصفه، أو أن يُعَبِّر عن كُنْهِهِ مقالٌ، أو يستحضر تَفْصِيله بال، وكل مؤمن له من ذلك نصيب بقدر إيمانه، ووصل الإنابة محبة القلب وخضوعه، وذله للمحبوب المراد، وكمال الإنابة يكون بالفرح والسرور بالقرب منه جل وعلا.

الإنابة إلى الله من أحب أنواع العبودية لله، وإنما تتحقق الإنابة إلى الله ببذل النفس لله، وتقديم محبة الله على كلِّ ما سواه، والعلم يُورِث الخشية، والزهد يورث الراحة، والمعرفة تورث الإنابة.

ومن أعظم أسباب انشراح الصدر أن ينيب العبد إلى ربه سبحانه وتعالى وأن يقبل عليه، فحينئذٍ لا شيء أشرَحَ لِصَدْرِ العبد من ذلك.

والناس في إنابتهم إلى الله على درجات متفاوتة، فمنهم المنيب إلى الله بالرجوع إليه من المخالفات والمعاصي، وهذه الإنابة مصدرها مطالعةُ الوعيد، والحامل عليها العلم والخشية والحذر، ومن الناس من يكون منيبًا إلى الله بالدخول في أنواع العبادات والقُرُبَات، فهو ساعٍ فيها بجهده، قد حُبِّبَ إليه فعل الطاعات وأنواع القربات، وهذه الإنابة مصدرها الرَّجَاء ومطالعة الوعد، ومصدرها اسْتِحْضَار الإنسان للثواب، ومحبة الكرامة من الله، وأهل هذا القسم أبسط نفوسًا من أهل القسم الأول، وأشرح صدورًا، وجانب الرجاء ومطالعة الرحمة والمنة أغلب عليهم، وإلا فكل واحد من الفريقين منيب بالأمرين جميعًا.

ومن العباد من يكون منيبًا إلى الله بالتضرع والدعاء والافتقار إلى الله، والرغبة إليه سبحانه، وسؤال الحاجات كلها منه.

ومصدر هذه الإنابة هو شهود الفضل والمنة والغنى التام والكرم والقدرة الكاملة، فمن كان عارفًا بأن الله جل وعلا متصف بذلك فإنه سينزل بالله حوائجه، ويعلِّق به آماله، فإنابة هذا القسم من هذه الجهة مع قيامهم بالأمر، ولكن إنابتهم من هذه الجهة قاصرة؛ لأن الإنابة ينبغي أن تكون من جهة الخوف، ومن جهة الرجاء، ومن جهة التضرع، ومن جهة المحبة، ولذلك فإن من ينيب إلى الله في وقت الشدائد فإنه لم يرزق الإنابة الخاصة، وحينئذٍ تكون إنابة هذا القسم إنابة اضطرار لا اختيار.

وأما أعلى أنواع الإنابة فإنابة الروح بجملتها إلى الله في جميع الأوقات، بحيث يكون العبد دائم الاتصال بالله، دائم الرجوع إليه سبحانه اعترافًا بنعمه وأملًا في فضله، وخوفًا من عقابه، ورجاءً لكرمه مع تضرعه بإزالة ما يحصل لديه من المصائب، ومن أنواع المكروهات.

أسأل الله جل وعلا أن يجعلنا وإياكم منيبين إليه سبحانه، ممن يستحضر نعمة الله عليه، ويستحضر قدرة الله عليه في جميع أوقاته.

هذا، والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

١٥- الزهد

الحمد لله الذي جعل الدنيا مزرعة الآخرة، نحمده سبحانه ونشكره، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم تسليمًا كثيرًا، أما بعد.

فإن من عبادات القلوب التي يتقرَّب بها المؤمنون إلى ربهم جل وعلا: عبادة الزهد، والزهد: عدم رغبة القلب في ما لا ينفع في الدار الآخرة، بينما الورع: ترك ما يضرّ بالآخرة. قال أبو واقد الليثي رحمه الله تعالى: «تابعنا الأعمال أيها أفضل، فلم نجد شيئًا أعون على طلب الآخرة من الزهد في الدنيا».

وقال الحسن البصري: «ليس الزهد في الدنيا بتحريم الحلال وإضاعة المال، ولكن الزهد أن تكون بما في يد الله أوثق منك بما في يدك، وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أصبت بها أرغب منك فيها لو لم تصبك».

الزهد: هو النظر إلى الدنيا بعين الزوال، بحيث تصغر الدنيا في عينيك، فيسهل عليك الإعراض عنها.

الزهد: سفر القلب من وطن الدنيا، وأخذه في منازل الآخرة، ومتعلّق الزهد ستة أشياء لا يستحق العبد اسم الزهد حتى يزهد فيها: يزهد العبد في المال، ويعلم أن المال ليس مقصودًا لذاته، وإنما هو وسيلة لغيره، ويزهد في الصور، وفي الرياسة، وفي الناس، وفي النفس وكل ما دون الله.

وليس المراد بالزهد في الدنيا أن يرفض العبد الدنيا بكمالها، وألا يتملكها، فقد كان سليمان وداود عليهما السلام من أزهد أهل زمانهما، ومع ذلك كان لهما من المال

والملك والنساء ما لهما، وكان النبي ﷺ من أزهد البشر على الإطلاق، ومع ذلك كان له تسع نسوة.

العلم مع الزهد والعبادة يلطف القلب ويرققه، ويزيل عنه ما فيه من الجفاء والغلظة، فيشمل الزهد: الزهد في الحرام، وهو فرض عين؛ بحيث يعرض المرء عن المعاصي والذنوب، ويشمل الزهد: الزهد في الشبهات، وله مراتب عديدة يختلف حكمها، ويشمل الزهد في الفضول، بترك ما لا يعني من الأقوال وأعمال الجوارح، وما لا ينفع في الآخرة.

وكذلك يشمل الزهد: الزهد في النيات والإرادات بأن يقصد المرء بعمله كله وجه الله والدار الآخرة.

قال سفيان الثوري: «الزهد في الدنيا قصر الأمل، ليس بأكل الغليظ ولا بلبس العباءة». وقد أمر الله جل وعلا بالزهد في مواطن من كتابه كما قال سبحانه: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾[طه: ١٣١]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾[القصص: ٨٠]، وقال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ۝ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾[الشورى: ١٩-٢٠]، وقال: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ﴾[النساء: ١٣٤].

وفي السنن قال النبي ﷺ: «من كانت الدنيا همه فَرَّقَ الله عليه أمره، وجعل فَقْرَه بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له، ومن كانت الآخرة نيَّته جَمَعَ الله أمره، وجعل غِنَاه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة».

وفي الصحيح: «إن المكثرين هم المُقِلّون يوم القيامة، إلا من أعطاه اللهُ خَيْرًا فنَفَحَ فيه يمينه وشماله وبين يديه وخلفه، وعمل فيه خيرًا كثيرًا».

ويعين على الزهد: أن يَعْرِف المرءُ أن الدنيا زائلة عما قريب، وأنها لن تبقى، ولذلك حذرنا الله تبارك وتعالى من الاغترار بها، وفي الحديث: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروها؛ فإنها تزهد في الدنيا وتُذَكِّر الآخرة».

ومما يعين على الزهد: أن يكون المرء صادق اليقين، تام الإيمان بالدار الآخرة المحتوية على النعيم المقيم والشقاء الدائم، مما يجعل المرء يزهد فيما يكلل سرعته في مشيه إلى جنة الخلد، وفي الحديث الصحيح: «يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة، فيصبغ في النار صبغة، ثم يُقَال: يا ابن آدم، هل رأيت خيرًا قط؟ هل مر بك نعيم قط؟ فيقول: لا والله يارب، ويؤتى بأشد الناس بؤسًا في الدنيا من أهل الجنة، فيُصْبَغ صبغة في الجنة، فيقول الله له: يا ابن آدم هل رأيت بؤسًا قط؟ هل مر بك شدةٌ قط؟ فيقول: لا والله يا رب، ما مَرَّ بي بؤس قط، ولا رأيت شدة قط».

ومما يعين على الزهد أيضًا: أن يعرف العَبْدُ أن الزهد لا يمنع من نعم الله في الدنيا، بل زهده فيها يجعل الدنيا تأتيه وهي راغمة، فالزهد لا يمنع من استعمال الدنيا في ما يرضي الله، والزهد لا يمنع من وصول نعم الله إلى عبد الله، بل زهده في الدنيا يكون من أسباب تنعُّم الله على العبد، ولا يمنع الزهد من وصول ما كتبه الله لك يا أيها العبد، كما أن حرص العبد على الدنيا لا يجلب له من الدنيا ما لم يُقَدَّر له

فيها؛ لذلك علينا أن نكون من الزاهدين حيث نعمل الأسباب تقرُّبًا لله لا مَحَبَّة في الدنيا، ونكتَسِب رغبة في أن نُغْنِي أنفسنا عن خلق الله، لا محبة للفخر والرياء والرفعة في الدنيا.

ومما يعين على الزهد: أن يعرف العبد حقيقة الدنيا، وأن يتلفَّت إلى ما حوله من النعم، وأنها عما قريب منتقلة عنه، فكم من صاحب مال كثير زال عنه ماله؟! وكم من صاحب شركات عظيمة زالت عنه شركاته؟! قال تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾[النحل: ٩٦].

ويعين على الزهد: أن يقارن العبد بين الدنيا والآخرة؛ فإن نعيم الآخرة دائم ونعيم الدنيا زائل، ونعيم الآخرة صاف غير مكدر ونعيم الدنيا مكدر بالمصائب قال تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾[النساء: ٧٧].

وفي سنن ابن ماجه أن النبي ﷺ قال: «**ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس**» الزهد فيما ينفع في الدار الآخرة ليس من الدين في شيء؛ فإن بعض الناس يعتقد أن ترك نعم الله وتحريم المباحات من الزهد، وهذا فَهْمٌ خاطئ مغاير لدين الإسلام ليس من الدين في شيء، بل صاحبه قد اعتدى على شرع الله بتحريم ما أحل الله، فيكون داخلًا في قول الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾[المائدة: ٨٧].

قال محمد بن كعب القرظي: إذا أراد الله بعبده خيرًا أزهده في الدنيا وفقهه في الدين، وبَصَّرَهُ عيوبه، ومن أوتيهن فقد أوتي خيرًا كثيرًا في الدنيا والآخرة، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ

صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾[سبأ: ٣٧]
فمن كانت دنياه معينة على طاعة الله سببًا من أسباب الإقدام على أنواع القربات، فإنه حينئذ يكون من الزاهدين؛ لأنه لم يقصد الدنيا، وإنما قصد بها اكتسبه الآخرة، أما من كان مراده الدنيا ليفاخر الناس ويباهي بها عنده فإنه حينئذ ليس من الزهد في شيء.

أسأل الله جل وعلا أن يجعلنا وإياكم من الزاهدين. اللهم يا حي يا قيوم عرِّفْنَا بحقيقة الدنيا، واجعلنا يا حي يا قيوم ممن استعمل الدنيا لتكون سلمًا لرفعة الدرجة في الآخرة.

هذا، والله أعلم، وصلى الله على نبيه محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه وسلم تسليم كثيرًا.

١٦- الخشية

الحمد لله القوي العزيز الذي تخضع لعظمته سطوة الجبابرة، نحمده جل وعلا ونخشاه، ونصلي ونسلم على نبيه محمد ﷺ أما بعد.

فإن من أعمال القلوب الخشية، وهي من أعظم الأعمال أجرًا وأكثرها ثوابًا، والخشية أخص من الخوف؛ إذ الخشية خوف مقرون بعلم وتعظيم، وقد أمر الله جل وعلا المؤمنين ألا يخشوا أحدًا من الخلق كائنًا من كان، وأن لا يخشوا أحدًا من دون الله، كما قال سبحانه: ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ﴾ [المائدة: ٣]، وقال جل وعلا: ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾[المائدة: ٤٤]، وقال: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[التوبة: ١٣]، وقال: ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾[الأحزاب: ٣٧]، وقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾[الأحزاب: ٣٩].

جاء في سنن ابن ماجه أن النبي ﷺ قال: **«لا يحقر أحدكم نفسه. قالوا: يا رسول الله، كيف يحقر أحدنا نفسه؟ قال: يرى أمرًا لله عليه فيه مقال، ثم لا يقول فيه، فيقول الله عز وجل له يوم القيامة: ما منعك أن تقول في كذا وكذا؟ فيقول: خشية الناس، فيقول الله: فإياي كنت أحق أن تخشى»**.

إن الخشية من الله هي شأن الأنبياء عليهم السلام، وفي مُقَدِّمَتِهم نبينا محمد ﷺ الذي قال: **«إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله وأعلمكم بما أتقي»** الخشية من الله عز وجل شأن العلماء كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ﴾ [فاطر: ٢٨] يعني: إن الذي يخشى الله حق الخشية هم الذين عرفوا الله، فعرفوا الله بذاته، وعرفوا شرعه وأمره، والمراد بهذه الآية: علماء الشريعة، وقد وصف الله أولي

الألباب بأنهم يخشون الله، كما قال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾[الرعد: ٢١].

إن الخشية من الله شأن الملائكة الذين قال الله عنهم: ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾[الأنبياء: ٢٨] الخشية من الله شأن أهل التقوى، كما قال سبحانه: ﴿وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾[الأنبياء: ٤٨-٤٩] ما أعظم أجر أهل الخشية! اسمع الله تعالى يقول في ذلك: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾[النور: ٥٢]، ويقول سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾[الملك: ١٢]، وقال جل وعلا: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾[البينة: ٨]، وقال سبحانه: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ۝ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ۝ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ۝ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ۝ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾[ق: ٣١-٣٥].

وفي الحديث: «**عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله**» وفي الحديث الآخر: «**لا يلج النار عين بكت من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع**».

ومن أسباب الخشية: تدبر القرآن وتأمل معانيه، قال تعالى: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾[طه: ٢-٣].

من أسباب حصول خشية الله تعالى في القلب: أن يتأمل المرء قصص الأمم السابقة التي عذَّبها الله وأنزل بها النكال بعد ما كانوا فيه من قوة وعِزّة، قال تعالى عن فرعون: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ۝ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾[النازعات: ٢٥-٢٦].

من أسباب حصول خشية الله تعالى في القلب: أن يتذكر المؤمن الموت وما بعده من الأهوال العظيمة يوم قيام الساعة، وتذكُّرِ مصير الناس إلى جنة أو نار، قال تعالى عن الساعة: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾[النازعات: ٤٥].

ومن أسباب تحصيل الخشية في قلب العبد: أن يتضرَّع المرء بين يدي الله، وأن يدعوه سبحانه من أن أجل أن ينيله خشيته، وكان من دعاء النبي ﷺ: **«اللهم إني أسألك خشيتك في الغيب والشهادة»**، ومن دعائه ﷺ: **«اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك»**.

إن أهل الخشية هم الذين ينتفعون بالمواعظ، وهم الذين يجعل الله قلوبهم مستفيدة مما يلقى من الخير والذكر، قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾[الأعلى: ٩-١٠]، وقال: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾[فاطر: ١٨]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾[يس: ١١]، قال عمر رضي الله عنه: «لا أمين إلا من خشي الله»، وقال: «شاور في أمرك الذين يخشون الله»، وقال ابن مسعود: «ليس العلم من كثرة الحديث، ولكن العلم من الخشية»، وقال الحسن: «إن المؤمن جمع إيمانًا وخشية، وإن المنافق جمع إساءة وأمنًا»، وقال مسروق: «كفى بالمرء علمًا أن يخشى الله، وكفى بالمرء جهلًا أن يُعْجَبَ بعمله».

أسأل الله جل وعلا أن يُنْزِل خشيته في قلوبنا وقلوبكم، وأن يجعلنا ممن يخشاه جل وعلا في ليله ونهاره وفي سائر أوقاته وجميع أحواله، اللهم يا حي يا قيوم، اغفر لنا ذنوبنا وزلاتنا وإسرافنا، وتجاوز لنا عن خطايانا، اللهم باعد بيننا وبين خطايانا كما باعدت بين المشرق والمغرب، اللهم اجعلنا ممن يخافك ويخشاك.

هذا، والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

١٧- الرضا بالقضاء والقدر

الحمد لله الذي قدر الأقدار، نحمده جل وعلا رضًا بقضائه ورضًا بأمره ونهيه، ونصلي ونسلم على رسوله، أما بعد.

فإن من الأعمال العظيمة الفائدة الكبيرة الأثر العميمة الثمرة الواسعة النفع: أن يرضى العباد بقضاء الله، وأن ترضى القلوب بأمر الله ونهيه، بحيث تكون القلوب مبتهجة بذلك كله راضية به، فترضى بقضاء الله، وترضى بأوامر الله، إذا جاء أمر من أوامر الله أو نهي من نواهيه رَضِيَتِ القلوب بذلك.

الرضا: سرور القلب بأوامر الله وأقداره، ولو كانت مؤلمة.

الرضا: عدم الجزع مما قضاه الله وقَدَّرَهُ، فأهل الإيمان يرضون عن الله ويرضون بأحكام الله فيُسَلِّمُون لها تمام التسليم، ولا يوجد في قلوبهم أي اعتراض عليها، سواء كانت من الأحكام الشرعية أو الأحكام القدرية.

رضا العبد عن الله ألا يكره ما يجري به قضاؤه، وألا يسخط شيئًا من أوامره، كان من دعاء النبي ﷺ: «**اللهم إني أسألك الرضا بعد القضاء**»، وقد جاء في الحديث أن النبي ﷺ قال: «**ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا، وبالإسلام دينًا وبمحمد رسولًا**»، وقال النبي ﷺ: «**من قال حين يسمع النداء: رضيت بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولًا غُفِرَت له ذنوبه**».

وفي سنن ابن ماجه: «**ما من مسلم أو إنسان أو عبد يقول حين يمسي وحين يصبح: رضيت بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد نبيًّا إلا كان حقًّا على الله أن يرضيه يوم القيامة**» فهذه الأحاديث عليها مدار عظيم من مقامات الدين، وإليها ينتهي منزلة عالية من منزلة هذه الشريعة، فقد تضمنت هذه الأحاديث: الرضا بربوبية الله جل وعلا وألوهيته سبحانه، وتضمنت أيضًا: الرضا برسول الله ﷺ والانقياد له، وتضمنت أيضًا: الرضا بدين الله مع التسليم له، ومن اجتمعت له هذه

الأمور فهو الصِّدِّيقُ حقًّا، فالرضا بألوهية الله يتضمن الرضا بمحبته وحْدَهُ وخوفه ورجائه والإنابة إليه، والتبتل إليه سبحانه، مع انْجِذَاب قوى القلب كلها لله وحده، بحيث لا يريد العبد إلا الله، ولا يحب إلا لله، وذلك فعل الراضي كل الرضا بمحبوبه، وهذا يتضمن عبادة الله والإخلاص له وحده.

وأما الرضا بربوبية الله فيتضمن الرضا بتدبيره لعبده، ويتضمن أن العبد يرضى بكل ما قدره الله عليه ولو كان من المصائب، ويتضمن إفراد الله بالتوكل عليه والاستعانة به والثقة به والاعتماد عليه، وأن يكون المرء راضيًا بكل ما يفعله الله به؛ فالنوع الأول يتضمن رضا العبد بما يؤمر به، والنوع الثاني يتضمن رضا العبد بما يقدره الله عليه، وأما الرضا بنبيِّه رسولًا فيتضمن كمال الانقياد له والتسليم المطلق إليه بحيث يكون أولى به من نفسه، فلا يتلقى الهدى إلا من مواقع كلماته ﷺ ولا يُحَاكِم إلا إليه وإلى كتاب ربه، ولا يحكِّم غيره، ولا يكون راضيًا بحكم غيره لا في شيء من أحكامه الظاهرة أو الباطنة؛ فإن عَجزَ عن العثور على حكمه كان تحكيمه لغيره من باب الاضطرار كالمضطر لا يجد طعامًا إلا الميتة والدم.

وأما الرضا بدين الله، فإذا قال شرع الله سَلَّمَ له ورضي به، أو حَكَمَ الله أو أمر أو نَهَى رَضِيَ كل الرضا بذلك، ولم يَبْقَ في قلبه حرج من حكمه، وسَلَّم له تسليمًا ولو كان مخالفًا لمراد نفسه أو هواها أو قول مُقَلِّدِهِ أو شيخه أو طائفته. وثمرة الرضا بذلك الفرح والسرور بالرب تبارك وتعالى.

من كمال عبودية العبد: عِلْمُهُ بأن وقوع البلية عليه من تقدير المالك الحكيم الذي هو أرحم بك يا أيها العبد منك بنفسك، فيوجب له ذلك الرضا بالله والشكر له على تدبيره ولو كان مكروهًا له، قال تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا

هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[التوبة: ٥١] أي هو متولي أمورنا الدينية والدنيوية، ولذلك فهو لا يقدر لنا إلا ما كان أحسن لنا، فعلينا الرضا بأقداره.

عدم رضا القلب يوجب قَلَقَ القلب واضطرابه وهمَّه وغَمّه، ومن ارتقى إلى الرضا في المصائب علم أن الرضا جنة الدنيا ومستراح العابدين وباب الله الأعظم، ورَأى ذلك نعمة لما فيه من صلاح قَلْبه ودينه وقربه إلى الله وتكفير سيئاته، ومما يجعله يَصُدّ عن ذنوب تدعو إليها شياطين الإنس والجن، قال الله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[المائدة: ١١٩]، وقال: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[التوبة: ١٠٠]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾[البينة: ٧-٨].

إن الصبر والإكثار من الصلوات والأذكار يجعل العبد يشعر بالرضا، قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾[طه: ١٣٠].

كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: «الخير كله في الرضا؛ فإن استطعت أن ترضى وإلا فاصبر»، وفي حديث علي: «إن الله يقضي بالقضاء، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط». قال الربيع بن أنس:

«علامة الشكر الرضا بقدر الله والتسليم لقضائه»، وليعلم العبد بأن دعاءه لله وتضرعه بين يديه لا ينافي الرضا، وأن بذله للأسباب التي تكشف ما يكرهه ليس مما ينافي الرضا.

أسأل الله جل وعلا أن يجعلنا وإياكم ممن رضي بقدر الله وأمره.

هذا، والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

١٨- السكينة

الحمد لله، يُنزِل الطمأنينة في قلوب المؤمنين فتَسْعد قلوبهم بأمر الله، وتسكن نفوسهم لِقَدَرِ الله، والصلاة والسلام على محمد بن عبد الله الذي تَتَجْلَجَلُ الأرض حوله وهو مطمئن ساكن القلب بفضل الله ونعمته عليه ورحمته به، أما بعد.

فإنَّ مِنَ القُرُبات والأعمال الصالحات والنعم المجزيات التي تَتَّصِف بها القلوب المؤمنة الصائمة صفة السكينة والطمأنينة.

والسكينة هي طمأنينة القلب مع اختلاف الأحوال ومشاهدة الأهوال، فالسكينة ثبات المرْءِ عند نزول المحن المقلقة والأمور الصَّعْبَة التي تُشَوِّش القلوب وتزعج العقول وتضعف النفوس، بحيث يبقى القلب ثابتًا مستمرًّا في إقامة أمر الله لا يُشْغِلُه أمر عن ذلك، بحيث تُشْغله ملاحظة وعد الله بنصر أوليائه عن شدة ما هو فيه من ألم وخوف.

السكينة هي الطمأنينة والوقار والسكون الذي يُنزله الله في قلب عبده عند اضطرابه حال شدة خوفه، فلا ينزعج بعد ذلك لما يرد عليه مما يوجب زيادة الإيمان وقوة اليقين والثبات.

إذا نزلت السكينة على القلب اطمأن بها وسكنت إليها الجوارح، وخشعت، واكتسبت الوقار، وأنطقت اللسان بالصواب والحكمة، وحالت بينه وبين قول الخنا والفحش واللغو والهجر وكل باطل، إذا ترحلت السكينة زال السرور وابتعد الأمن وفارق المرء الراحة.

السكينة منة من الله ونعمة من رب السماوات والأرضين، كما قال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[الفتح: ٤]، وقال: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ﴾[الأنفال: ١٢]، وقال سبحانه: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾[الفتح: ١٨]، وقال: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾[الفتح: ٢٦]، وقال سبحانه ممتنًّا على المؤمنين: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾[آل عمران: ١٢٦].

انظر إلى حال أهل الكهف الذين قال الله عنهم: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: ثبتنا قلوبهم بالطمأنينة والسكينة حتى يطمئنوا فلا يجزعوا ولا يخافوا من الناس، وحتى يصدعوا بالحق، وحتى يصبروا على فراق الأهل والنعيم عند فرارهم بدينهم في غار جبل لا أنيس فيه ولا ماء به ولا طعام.

ولا يخفى عليك خبر الهجرة، حيث خرج النبي ﷺ وأبو بكر وهما وحيدان أعزلان لا سلاح معهما، يدخلان الغار وقريش بكماها وما لديها من عُـدَدٍ وعُـدَّة يقفون على ذلك الغار بقلوب حانقة، وسيوف مُسْلَطة، وآذان مرهفة، فيقول أبو بكر الصديق: «لو نظر أحدهم تحت نَعْلَيْهِ لَأَبْصَرَنا» فيقول النبي ﷺ وهو في غاية الطمأنينة ومُنْتَهى السكينة: «**ما بَالُك باثنين الله ثالثهما؟!**».

وأعجب من ذلك في يوم بدر، تأتي قُوَى الشر في خيلائها وتكبُّرِهَا وعُدَّتِها وعَتَادِهَا وأمامهم جند الله في قِلَّةٍ مِنَ العَدَدِ وقلة من السلاح، فتنزل الطمأنينة على المؤمنين، ويعقبها النصر المبين في تلك المواطن الخطيرة.

هناك مواطن ورد في الشرع تأكيد الأمر بالسكينة فيها، ومنها حال المشي إلى الصلاة، كما في حديث أبي هريرة ﵁ أن النبي ﷺ قال: «**إذا أقِيمَتِ الصلاة فلا تأتوها وأنتم تَسْعَوْنَ وأتُوها تَمْشُون وعليكم السكينة، فما أدْرَكْتم فصلوا وما فاتكم فأتموا**».

ومن ذلك أثناء حال أداء الصلاة، ففي صحيح مسلم حديث جابر بن سَمُرَةَ مرفوعًا: «**اسْكُنُوا في الصلاة**».

ومن ذلك في مشاعر الحج، قال النبي ﷺ بعد خروجه من عرفة في الحج: «**أيها الناس، السَّكِينةَ السكينةَ**» قال جابر: أفاض رسول الله ﷺ وعليه السكينة وأمرهم بالسكينة.

قال الإمام مالك: «على مَنْ طَلَبَ العلم أن يكون له وقار وسكينة وخشية».

السكينة والطمأنينة نعمة من الله للعبد في أوقات الشدائد التي تطيش لها الأفئدة، وتكون الطمأنينة على حسب معرفة العبد بربه وثقته بوعده الصادق بنصر أوليائه، وبحسب إيمانه وشجاعته.

من أسباب تنزل السكينة: الاجتماع في طلب العلم، وإقراء القرآن؛ ففي الصحيح أن النبي ﷺ قال: «**ما اجْتَمَعَ قَوْم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نَزَلَتْ عليهم السكينة، وغَشِيَتْهم الرحمة، وحفَّتْهم الملائكة، وذَكَرَهم الله فيمن عنده**».

ومن أسباب تنزل السكينة في القلوب: قراءة القرآن؛ فقد قال النبي ﷺ: **«تلك السَّكِينةُ تَنَزَّلَتْ للقرآنِ»**.

ومن أسباب السكينة: الدعاء؛ فقد جاء في الأثر أن الصحابة دعوا:

فأنزلن سكينة علينا وثبِّتِ الأقْدَام إن لاقينا

وقد كان النبي ﷺ يُرَدِّدُ هذه الكلمات في يوم الأحزاب مع الصحابة، فنصرهم الله على عدوهم، وثبَّت قلوبهم.

ومن أسباب الطمأنينة: الإكثار من ذكر الله، كما قال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾[الرعد: ٢٨].

ومن أسباب تحصيل الطمأنينة: ورع الإنسان عن المشتبهات؛ ففي الحديث: **«البِرُّ مَا سَكَنَتْ إليه النفس، واطْمَأَنَّ إليه القلب»**، وفي الآخر: **«البر ما اطْمَأن إليه القلب وسكنت إليه النفس، والإثم ما حَاكَ في قَلْبك وتردَّد في صدرك وإن أفتاك الناس»**.

من أسباب تحصيل الطمأنينة: الصدق؛ كما في الحديث أن النبي ﷺ قال: **«الصِّدْق طمأنينة والكَذِبُ رِيبة»**.

إن طاعة المرء لربه ومسارعته في الاستجابة للوعظ من أسباب الطمأنينة والسكينة، فإذا سمعت داعيًا يدعو إلى الله فاستجب له واستَمِعْ لكلامه، وامتثل لتوجيهه يثبِّتْك الله، كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّا كَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَنِ ٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ أَوِ ٱخۡرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٞ مِّنۡهُمۡۖ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا ﴿٦٦﴾ وَإِذٗا لَّأٓتَيۡنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيۡنَٰهُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾ [النساء: ٦٦-٦٨].

ما أعظم أجر المطمئن! اسمع لقول ربك: ﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨ فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى ۝٢٩ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾[الفجر: ٢٧-٣٠]، وفي مقابل هؤلاء يزيل الله عن بعض العباد أمن القلوب، ويرفع عنهم الطمأنينة ويمنعهم السكينة، كما قال: ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾[الحشر: ٢].

اللهم يا حي يا قيوم، أنزل السكينة والطمأنينة في قلوبنا.

هذا، والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

١٩- الاعتبار والتفكر

الحمد لله رب العالمين، أمرنا بالاعتبار والتفكر في مخلوقاته، فما أسعد من اعتبر قلبه وتفكَّر لُبُّهُ فيما خلقه الله له وفيما قَدَّرَهُ الله عليه! أحمده سبحانه، وأشهد أن لا إله إلا هو، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أما بعد.

فإن من عبادات القلوب التي يتقرب بها المؤمنون إلى ربهم: التفكر والاعتبار، والتفكر: هو تأمل القلب في المعاني لإدراك العواقب وفهم الحقائق، والاعتبار قياس حال النفس بحال الغير، إذ ما حل بغيرك سيحل بك متى كانت أسباب ذلك حاصلة عندك، والسعيد من وُعِظَ بغيره، ومما تكرر في القرآن مدح المتفكرين وفتح الباب للتفكر والاعتبار والأمر الجازم بذلك، قال تعالى: ﴿فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾[الحشر: ٢] كأنه قال: انظروا إلى فعل هؤلاء الذين نزلت بهم العقوبات، فاجتنبوا فعلهم لئلا ينزل بكم عقاب مثل عقابهم. وأصل الخير والشر من قِبَلِ التفكر؛ فإن الفكر مبدأ الإرادة والطلب في الزهد والترك والحب والبغض.

كثر الحث في كتاب الله تعالى على التدبر والاعتبار والنظر والافتكار، ولا يخفى أن الفكر هو مفتاح الأنوار ومبدأ الاستبصار، وهو شبكة العلوم ومصيدة المعارف والفهوم، وأكثر الناس قد عَرَفوا فضل التفكّر ورتبته، ولكن جهلوا حقيقته وثمرته ومصدره.

إن التفكر في آيات الله الكونية والشرعية مفتاح الإيمان وطريق العلم والإيقان؛ فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[الرعد: ٤] أي يستفيد من التفكر في ذلك مَنْ لهم عقول يستعملونها في التدبر والتفكر، فيعرفون ما هم مهيئون له، فيفارقون حال الغافلين

الذين يكون استعمالهم لحواسهم مماثلًا لحظ البهائم؛ إذ لا يجعلون إحساسهم سبباً للتفكر والتأمل.

التفكر والاعتبار يكون في أمور عديدة، منها: الاعتبار بنصر الله لأوليائه المؤمنين، قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَـٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾[آل عمران: ١٣].

كذلك الاعتبار بالعقوبات التي نزلها الله على الأمم المكذبة السابقة قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن دِيَـٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُواْ يَـٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾[الحشر: ٢]، وقال تعالى عن فرعون: ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْأٓخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾[النازعات: ٢١-٢٦]، وقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَـٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾[طه: ٥٤]، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَـٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْأٓخِرَةِ﴾ [هود: ١٠٢-١٠٣].

كذلك الاعتبار بالمخلوقات العظيمة التي خلقها رب العزة والجلال، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾[آل عمران: ١٣]، وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾[الشعراء: ٧-٨].

كذلك الاعتبار في إخراج الله للمخلوقات من بين الأمور المتضادات، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۖ نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[النحل: ٦٦-٦٧]، فانظر كيف أخرج اللبن من بين الفرث والدم، وانظر كيف فرق بين السكر والرزق الحسن.

وكذلك الاعتبار بالتاريخ وقصص الأمم السابقة، وخصوصًا ما ذكره الله تعالى في كتابه العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، قال سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[يوسف: ١١١].

ومن ذلك الاعتبار والتفكر في أحوال قرابتك الذين ماتوا وتركوا الدنيا، يقول النبي ﷺ: «**زوروا القبور فإن فيها عبرة**» وفي لفظ: «**فإنها تذكركم الآخرة**».

ومن ذلك الاعتبار والتفكر في أحوال الدنيا وتقلباتها، كم من غني أصبح فقيرًا؟! وكم من رئيس أصبح مرؤوسًا؟! بكى عمر بن عبد العزيز يومًا، فسئل عن ذلك فقال: «فكرت في الدنيا ولذاتها وشهواتها فاعتبرت منها بها، ما تكاد شهواتها تنقضي حتى تُكَدِّرَهَا مرارتها، ولئن لم يكن فيها عبرة لمن اعتبر إن فيها لمواعظ لمن ادَّكر».

ومن ذلك تفكر الإنسان في خلق الله له ونقله من حال إلى حال ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ﴾[الطارق: ٥-٦]، ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾[نوح: ١٣-١٤].

ومن ذلك: تفكر الإنسان في الأحوال التي مر عليها طعامه الذي يأكله، قال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾[عبس: ٢٤-٣٢].

فمن نظر في هذه النعم أوجب له ذلك شكر ربه، وجعله يبذل الجهد في الإنابة إليه، والإقبال على طاعته والتصديق بأخباره.

لقد اشتمل كتاب الله على الأدلة العقلية المقنعة في كل شأن مما عرض له كتاب الله، فهل من متفكر فيها؟!

إذ في الاعتبار بذلك تقوية الإيمان والزيادة له، بالاعتبار زيادة الخوف من الله والرجاء له، بالاعتبار تعريف الإنسان بحقائق المخلوقات ومعرفة الإنسان بحقيقة نفسه، بالاعتبار معرفة الدنيا وحقيقتها وزوالها وتذكُّر الآخرة مع الاستعداد لها، بالاعتبار بذلك قناعة العبد بما رزقه الله وسعادة قلبه وطمأنينة نفسه، بالاعتبار تزيد البصيرة وتقوى الفراسة وتزيد الحكمة، بالاعتبار والتفكر يُدْرِكُ المرء عواقب الأمور، بالتفكر يدرك المرء قدرة ربِّهِ وعظَمَته، ويدرك عدله ورحمته وحكمته وتمام ملكه وتفرُّدِه بالتصرف في المخلوقات مع مشاهدة مقدار بعض نِعَمِ الله على العبد، بالتفكر والاعتبار ينتقل العبد إلى حمد الرب وشكر النِّعم والاستعداد ليوم المعاد، وإذا غذِّيَ القلب بالتذكر وسُقِي بالتفكر وسَلِمَ من الآفات رَأى العَجَائب وأُلْهِم الحكمة.

أسأل الله جل وعلا أن يجعلنا وإياكم من المتفكرين، والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد.

٢٠- الندم

الحمد لله قابل توبة التائبين، يَغْفِرُ الذنوب جميعًا، ويتجاوز عن النادمين، والصلاة والسلام على مَنْ يُحْفَظُ له في المجلس الواحد سبعين مرة: أستغفر الله وأتوب إليه، أما بعد.

فإن من أعمال القلوب التي يَعْظُمُ أَجْرُهَا: الندم على ما حصل من الذنوب، والندم ركن التوبة ومبدَؤها، وفي السنن بإسناد جيد أن النبي ﷺ قال: **«الندم توبة»**. ولا خلاف بين أهل العلم أن التوبة من الذنب لا تَصح إلا بالندم على فعله، والندم على المعاصي لا يكون توبة ولا قربة إلا إذا كان ندمًا لله، فمن ندم على فعل المعصية لما فيها من ضَرَرٍ دُنيوي أو مَرَضٍ لم يكن تائبًا.

والندم يتضمن اعتقادًا وجزمًا، ويتضمن إرادة ورغبة، ويتضمن ألمًا وحسرة؛ فإن القَلْبَ إذا استشعر أنه فعل ما يضُرّه حصل له معرفة واعتقاد بأن ما فعله كان من السيئات، وَحَصَل له كراهية لذلك الفعل، وهذا من باب الإرادات، و حَصَل له أذًى وغمٌّ لإقدامه على معصية ربه فالندم يتضمن ثلاثة أشياء، **أولها**: اعتقاد قُبْحِ ما نَدِم عليه، **وثانيها**: بُغْضُهُ وكراهته، **وثالثها**: الألم الذي يلحقه بسبب ارتكابه للذنب.

إن الندم قد يكون بسبب فِعْلِ العبد للمعاصي والسيئات، وقد يكون بسبب فعل العبد للمكروهات، والندم قد يكون بسبب ترك العبد للواجبات، وقد يكون بتضييع الإنسان لوقته وعدم فعله للمندوبات، وكذلك قد يكون الندم بسبب ما حَصَلَ على العبد من اعتقادات باطلات، قال ابن مفلح: «التوبة هي الندم على ما

مَضَى من المعاصي والذنوب، والعزم على تركها دائمًا لله عز وجل، لا لأجل نفع الدنيا أو زوال أذى».

قال الحسن البصري في تفسير التوبة النصوح: «هي ندم بالقلب، واستغفار باللسان، وترك بالجوارح، وإضمار ألا يعود».

إن الندم على ما كان من الذنوب والمعاصي له أسباب وثمرات، فمن ذلك أن الله تعالى غفور رحيم، يَغْفِرُ الزَّلَّات، ويعفو عن الخطيئات، ويتجاوز عن أهل الندم، فمن استشعر ذلك أَقْدَمَ على التوبة والندم فغَفَرَ الله ذَنْبَه، قال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾[البقرة: ٢٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ﴾[الكهف: ٥٨]، وقال: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾[التوبة: ١٠٤]، وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾[الشورى: ٢٥].

إن الندم والتوبة شأن عباد الله الصالحين، فهذا إبراهيم عليه السلام يقول: ﴿وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[البقرة: ١]، وموسى يقول: ﴿سُبْحَـٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[الأعراف: ١٤٣]، وهكذا كتاب الله مليء من ذكر كلام أنبياء الله في تقديم التوبة بين يدي الله.

إن التوبة سبب لمحبة الله للعبد التائب، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾[البقرة: ٢٢٢].

إن التوبة طريق الفلاح والنجاح، كما قال سبحانه: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[النور: ٣١].

إن التوبة إلى الله والندم على المعاصي سبب لصفاء القلب، ففي الحديث أن النبي ﷺ قال: «**إن العبد إذا أخطأ نُكِتَ في قلبه نكتة سوداء، فإذا هو نَزَعَ واستغفر وتاب ثُقِلَ قَلْبُهُ، وإن عاد زِيدَ فيه حتى تَعْلُوَ قلبَه وهو الران الذي ذكر الله** ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[المطففين: ١٤]».

الندم على الذنوب سبب لمغفرتها، كما قال سبحانه: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[الزمر: ٥٣].

وقد حكى جماعة من العلماء الإجماع على أن هذه الآية في التائبين، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[النحل: ١١٩]، وقال: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾[طه: ٨٢].

إن الندم على المعصية الذي يعقبه عمل صالح يكون سببًا لتبديل السيئات لتكون حسنات، كما قال تعالى عن أهل المعاصي: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٧٠].

الندم على المعصية ينتج كثرة الاستغفار الذي يكون سببًا لخيري الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ﴾[هود: ٣].

الندم على المعصية سبب لمحبة الله للعبد وفرحه به وإقباله عليه، كما ورد في الحديث أن النبي ﷺ قال: «**للهُ أفرح بتوبة أحدكم ممن ضَلَّ عنه بعيره في فلاة، وقد أَيِسَ منه ثم أَقْبَل عليه**».

الندم هو والتوبة والاستغفار من أسباب طِيبِ الحياة الدنيا، ومن أسباب تفضُّل الله على العبد بالنعم في هذه الدنيا قبل الآخرة، كما قال سبحانه: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾[هود: ٣].

يا من فاته الفوز في سباق الطاعات لا تفوتنَّك ساعات الندم في التوبة، فما أعظم أثرها على النفس! وما أكثر ثوابها عند الرَّب! إن من فضل الله على العباد أنه سبحانه يدعوهم إلى الندم والتوبة لِيثِيبَهُم ويأجرهم ويمحو عنهم ذنوبهم وزلاتهم، فهل من عاقل يستجيب لدعوة الله؟! جاء في الحديث الذي رواه الترمذي أن النبي ﷺ قال: «**قال الله عَزَّ وَجَل: يا ابن آدم، لو بَلَغَتْ ذنوبك عنان السماء، ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي**».

بل اسمع لما رواه الإمام مسلم أن النبي ﷺ قال: «**والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم**».

علامة صدق الندم على ما مضى من الذنوب: شدة تحفُّظ العبد فيما بقي من عمره، مع مواثبته لأنواع الطاعات بالجد والاجتهاد، وكون العبد يرى أن ما يؤديه من الطاعة قليل، وأن ما يُنْعم الله به عليه كثير، مع رقة قلبه وصفائه وطهارته، وكثرة بكائه وحزنه، وتفويض الأمر إلى الله تعالى.

فيا أيها المؤمنون، شهر كريم، شهر موسم للطاعات، فالله الله اندموا على ما حَصَل منكم من السيئات، واعزموا على عدم العودة إليها، فإن هذا الموسم مما يجعل المرءَ يَسْتَشْعِر فضل التوبة إلى الله، ويجعله يُقلع عن معاصي الله، ويجعل الشياطين لا تتمكن من إيصال الوساوس إلى قلبه؛ لأنها تُصَفَّد في شهر رمضان، فاستعملوا هذا الشهر في التوبة إلى الله جل وعلا والندم على ما حصل منكم من الذنوب.

أسأل الله جل وعلا أن يغفر لنا ولكم، وأن يهديَنا وإياكم للتوبة النصوح.

هذا، والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

٢١- التضرع والخضوع

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، أما بعد.

فإن من الأعمال الصالحة التي تتقرب القلوب بها إلى الله جل وعلا وخصوصًا في هذا الشهر المبارك شهر رمضان: التضرُّعُ والخُضُوعُ بين يَدِي الله جل وعلا، والمراد بالتضرع: التذلل لله تعالى، والخُضُوع له، والانكسار بين يديه؛ محبة وتعظيمًا، فإن دين الإسلام مبْنِيٌّ على هذا المعنى؛ إذ إن تعريف الإسلام هو الاستسلام لله وحده، فأصْلُ الاستسلام يكون في القلب بالخضوع لله وحده، وبعبادته سبحانه وَحْدَهُ دون مَنْ سِوَاهُ، ومن هنا فإن الناظر في النصوص الشرعية يجد أنها ترغِّب في التضرع بين يدي الله والإخبات له سُبْحَانَهُ، فالتضرع يكون في الدعاء، كما قال تعالى: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾[الأعراف: ٥٥] والتضرع يكون عند ذكر الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

وكان من هدي النبي ﷺ إذا ذهب إلى أداء الصلاة أن يكون متضرعًا خاضعًا، وقد ذكر ابن عباس رضي الله عنهما صفة النبي ﷺ عند ذهابه لصلاة الاستسقاء، وكان من ذلك أنه يذهب متخشعًا متخضعًا متضرعًا.

إن الله تعالى يرسل المصائب للناس لعلهم يخضعون لربهم جل وعلا، كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ۝ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[الأنعام: ٤٢-٤٣]، وقال

سبحانه: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾[الأنعام: ٦٣-٦٤]، وقال سبحانه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾[الأعراف: ٩٤]، وقال الله جل وعلا مبينًا حال أهل الإيمان عند وصول النصوص الشرعية إليهم: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[الحج: ٥٤]، ويقول سبحانه مبينًا ثمرات الإخبات إلى الله والخضوع له جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[هود: ٢٣]، ويقول جل وعلا: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾[الحج: ٣٤]، قال ابن عباس: هم المتواضعون. وقال غيره: المتضرعون.

الإخبات إلى الله يورث الطمأنينة والثقة بالله وحسن الظن به سبحانه، والإخبات إلى الله يقطع تعلّق القلب بغير الله.

ومن مظاهر الخضوع لله والإخبات بين يديه: الركوع والسجود اللذان يدلان على غاية الخضوع لله.

الخاشع المتضرع يسأل الله مسألة المسكين الذليل الذي انكسر قلبه، وزلت جوارحه، وخشع صوته، حتى إنه ليكاد تبلغ ذلته ومسكنته وضراعته إلى أن ينكسر لسانه.

ومن أكبر الدواء لما يصيب الإنسان من البلاء التضرع لله وحده، لاسيما في أوقات الإجابة .

إن قلوب العابدين تحصل في أوقات السحر من الرِّقَّة والتضرع وحلاوة العبادة ما يجعل العبد يحس بمخاطبته لربه.

إن العبد المؤمن يحركه إلى التضرع والخضوع لله: مشاهدة قدرة الله واستحضار عظمة الله وغناه، مع معرفة العبد بشدة حاجته إلى ربه جل وعلا وفقره إليه واضطراره لمعونته، مع ما لدينا من نقص وتقصير.

إن التضرع بين يدي الله يجعل القلب حاضرًا حال مخاطبتنا مع الله جل وعلا، قال ابن القيم: «إذا اجتمع مع الدعاء حضور القلب واجتماعه بكليته على المطلوب، وصَادَفَ وقتًا من أوقات الإجابة، وصادف خشوعًا في القلب وانكسارًا بين يَدِي الرب، وذلًّا له، وتضرعًا ورغبة، واستقبل الداعي القبلة، وكان على طهارة، ورَفَعَ يَدَيْهِ إلى الله تعالى، وبَدَأَ بحمد الله والثناء عليه، ثم ثَنَّى بالصلاة على محمد عبده ورسوله ﷺ، ثم قَدَّم بين يدي حاجته التوبة والاستغفار، ثم دخل على الله وألحَّ عليه في المسألة وتملَّقه ودعاه رغبة ورهبة، وتوسل إليه بأسمائه وصفاته وتوحيده، وقدَّم بَيْنَ يدي دعائه صدقة؛ فإن هذا الدعاء لا يكاد يرد أبدًا، ولا سيما إن كان الدعاء بالأدعية المأثورة الوارِدَةِ عن النبي ﷺ، والتي أَخْبَرَ النبي ﷺ أنها مُتَضَمِّنَة للاسم الأعظم».

في الدعاء من الفائدة: التضرُّعُ بين يدي الله عز وجل، وذلك مُنْتَهَى العبادات؛ فالدُّعَاء يَرُدّ القلب إلى الله بالتضرُّع والاستكانة، ولذلك كان أشد الناس بلاءً: الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل؛ لأن الدعاء يرد القلوب إلى الله بالاستكانة والتذلل.

إن ترغيب الشارع في إخفاء بعض العبادات لتكون أعظم في التضرُّعِ بين يَدَيِ الله وأقرب إلى حضور القلب مع الله، وأبعد عن الرياء والمباهاة، وأعونَ على تدبر معنى ما

يدعو به الإنسان، أو يذكر به ربه، فيكون ذلك سببًا من أَسْبَابِ عُلُوِّ دَرَجَتِهِ في دنياه وأخراه.

أسأل الله جل وعلا أن يجعلنا وإياكم من المتضرعين بين يدي الله في كل حين، كما أسأله جَلَّ وعلا أن يصلح قلوبنا، وأن يجعلها متعلقة بالله جل وعلا.

هذا، والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

٢٢- الصبر

الحمد لله يأمر وينهى، ويقضي ويحكم، لا راد لما قضى ولا معقِّبَ لما حكم، والصلاة والسلام على رسوله، أما بعد.

فإن من أعمال القلوب التي يتقرب المؤمنون بها إلى ربهم جل وعلا: الصبر وعدم الجزع؛ فإن الصبر من أخلاق النفوس الأبيَّةِ، ومن صفات القلوب المُخلصة.

الصبر حَبْسُ النفس عن التجزّع، سواء في أوامر الله الشرعية أو أقْدَارِه الكونية، قال عُبَيْد بن عمير: «ليس الجزع أن تدمع العين ويحزن القلب، ولكن الجزع القول السيئ والظَّن السَّيِّئ»، وقد قال الله جل وعلا عن أم موسى: ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[القصص: ١٠] أي: ثبَّتناها بالصبر وبإبعاد الجزع عنها؛ فإن العبد إذا أصابته مصيبة فصبر ولم يجزع زاد ذلك من إيمانه، فدل على أن استمرار الجزع مع العبد دليل على ضعف إيمانه، وفي الخبر: «إذا أحب الله قومًا ابتلاهم، فمن صبر فله الصبر ومن جزع فله الجزع».

ومن طرق علاج الجزع: نسيان المصائب، مع اليقين بأن ما عند الله أفضل وأبْرَك، وعند الله جل وعلا الخَلَف من كل مصيبة.

ومن علاج الجزع: التخَلّق بخلق الصبر، وعدم الشكوى إلى الخلق من أقدار الله المؤلمة، وإنما يشكو العبد إلى ربه جل وعلا.

ومن علاج الجزع: ملاحظة صنع الله في عباده، مما يتمكن المرء معه من علاج جزعه.

ومن طرق علاج الجزع: أن يتذكر المرء مقارنة الظَّفَرِ والفوز بالصبر؛ فإن الله جل وعلا قد وَعَدَ الصابرين بالفوز والظفر.

ومن أعظم علاج الجزع: الإكثار من الصلاة؛ فإن النبي ﷺ كان إذا حَزَبَه أمر فَزَعَ إلى الصلاة، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۝٢٢ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾[المعارج: ١٩-٢٣].

وفي الحديث أن النبي ﷺ قال: «**يا بلال أرحنا بالصلاة**».

ومن أنواع علاج الجزع: الإكثار من ذكر الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[الرعد: ٢٨].

وكذلك من طرق علاج الجزع: الإيمان بالقضاء والقدر، بأن يعلم العبد أن ما قَدَّرَهُ الله عليه فلا مَنَاص له منه ولا مهرب منه، مهما فعل من الأسباب.

ومن علاج الجزع: أن يعرف العبد أن الجَزَعَ يضرُّه ولا ينفعه، وقد جاء في حديث محمود بن لبيد أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا أَحَبَّ الله قَوْمًا ابتلاهم فمن صبر فله الصبر ومن جزع فله الجزع**».

وكتب محمود بن لبيد لمعاذ: «إن احتسبته -يعني ولده الذي مات- فاصبر، ولا يُحْبط جَزَعُكَ أَجْرَكَ فتندم، واعلم أن الجزع لا يَرُدّ شيئًا ولا يدفَع حزنًا».

وقال عمر بن عبد العزيز: «الصبر أقرب إلى الله وسيلة، وليس الجزع بِمُحْيِي من مات ولا بِرَادٍّ ما فات».

وليعلم المصاب بأي مصيبة أن الجزع لا يرد المصيبة التي قَدَّرَها الله، بل إنَّ الجَزَعَ يضاعف المصيبة، والجزع في الحقيقة يزيد في مصيبة العبد، فالجزع يشمت العدو ويسوء الصديق، ويغضب الرب، ويُسِر الشيطان، ويحبط الأجر، ويضعف النفس، ولذلك جاءت النصوص الشرعية بالأمر بالصبر.

إن لترك الجزع مع التخلق بالصبر فوائد عظيمة؛ فهو من صفات الصادقين المتقين، كما قال سبحانه: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[البقرة: ١٧٧].

الصابر يَعْظُمُ أجره عند ربه كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[الزمر: ١٠].

الصابر محبوب عند الله، كما قال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[آل عمران: ١٤٦] ولذا كان من صفات المفلحين: التواصي بالصبر، كما قال جل وعلا: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾[العصر: ٣].

الإمامة في الدين إنما تنال بصفات، منها: الصبر، كما قال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾[السجدة: ٢٤]، وقد وعد الله الصابرين بأن يكون الله معهم مؤيدًا وناصرًا، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[البقرة: ١٥٣]، وقال جل وعلا: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، ومن هنا فقد بَشَّرَ الله جل وعلا الصابرين بالرحمة والهُدَى، كما قال سبحانه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾[البقرة: ١٥٥-١٥٧].

الصبر من أسباب دخول الجنة، كما قال الله تعالى: ﴿إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾[المؤمنون: ١١١]، وقال جل وعلا: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾[الرعد: ٢٤].

الصبر من أسباب الظفر والنصر في الدنيا، جاء في حديث ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «**واعلم أن في الصبر على ما تكره خيرًا كثيرًا وأن النصر مع الصبر**».

الصابرون يجعلهم الله يفكرون في العواقب ويدركون مآلات الأمور، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾[إبراهيم: ٥].

الصبر مع التقوى يحصل بهما فوائد عظيمة وثمرات جزيلة، كما قال سبحانه: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾[آل عمران: ١٨٦]، وقال: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[يوسف: ٩٠]، وقال: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾[آل عمران: ١٢٠].

وفي الحديث أن النبي ﷺ قال: «**مَنْ يَصْبِرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ، وما أُعْطِيَ العَبْدُ عَطَاء خَيرًا وأوسَعَ مِنَ الصَّبْرِ**» متفق عليه، وفي صحيح مسلم: «**الصبر ضياء**»، وقال سبحانه: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾[الشورى: ٤٣]، ويقول النبي ﷺ: «**عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له**»، كما رواه الإمام مسلم في صحيحه.

إن الجزع وترك الصبر يورد الإنسان المهالك، وفي الصحيحين أن النبي ﷺ قال: «**كان فيمن كان قبلكم رجل به جُرْح فَجَزِعَ فأخذ سكينًا فحَزَّ بها يده، فما رقأ الدم حتى مات، فقال الله تعالى: بادَرَني عبدي بنفسه حَرَّمْتُ عليه الجَنَّة**».

نسأل الله جل وعلا أن يرزقنا وإياكم الصبر، وأن يبعد عنا الجزع.

هذا، والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

٢٣- ترك الحزن

الحمد لله، والصلاة السلام على رسول الله، أما بعد.

فإن من الأمور التي ترد إلى القلوب: الحزن، والحزن هو ألم القلب بوقوع مكروه أو فوات محبوب في الماضي، والحزن لا يجلب منفعة ولا يدفع مضرة، فلا فائدة فيه، وإذا لم يقترن بالحزن محرَّم فإنه يُعْفَى عنه؛ لقول النبي ﷺ: **«إن الله لا يؤاخذ على دمع العين ولا حزن القلب، ولكن يؤاخذ على هذا أو يرحم»** وأشار إلى لسانه ﷺ.

وقد نهى الله المؤمنين عن الحزن، فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[آل عمران: ١٣٩] أي: لا تضعف أبدانكم ولا تحزن قلوبكم بسبب ما أصابكم من المصائب؛ فإن الحزن زيادة مصيبة، وسببٌ لاستظهار عدوكم عليكم، فلْتَشَجَّعوا واطردوا عن قلوبكم الحزن؛ إذ لا ترتفع درجةِ المؤمن بالحزن؛ إذ إن المؤمن هو الأعلى الذي يرجو نصر ربه في الدنيا، وهو الذي يؤمِّل رفعة الدرجة في الآخرة، وقد قال النبي ﷺ لأبي بكر الصديق: **«لا تحزن إن الله معنا»** لما كانوا في الغار في ليلة الهجرة.

إن الشيطان يحرص على إيقاع الأحزان في قلوب أهل الإيمان كما ورد في الحديث: **«لَوْ تَفْتَحُ عمل الشيطان»** أي: تفتح الحزن والجزع، وهذا يضر ولا ينفع، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾[المجادلة: ١٠].

ومن الرؤيا المنامية ما يكون تحزينًا من الشيطان، كما ورد ذلك في الصحيحين، والنهي عن الحزن؛ لأن الحزن يضعف القلب ويوهن العزم ويضر بالإرادة، فالحزن مرض للقلب يَمْنعه من القيام ببعض وظائفه، وإن كان الحزنُ ليس من اختيار العبد، وإنما يقع في قلبه في أحيان كثيرة بدون أن يقصده، وإنما المرادُ أن يحاول العبدُ رفع الحزن الحاصل في قلبه.

والحزن نوع من أنواع المصائب التي يكفر الله بها الذنوب، كما قال النبي ﷺ: «**ما يُصِيبُ المسلم من نصب** -أي: تعب- **أو وصب**- أي: مرض- **ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم، حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه**» متفق عليه. وعلى العبد إذا وقع الحزن في قلبه أن يتجنَّب التسخط من أقدار الله.

إن المؤمن حريص على إبعاد الحزن عن قلبه، ولذلك كان من دعاء النبي ﷺ: «**اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن**»، وفي الحديث: «**التلبينة تُجِمُّ فؤاد المريض وتذهب ببعض الحزن**» والتلبينة هي الحساء أو الشوربة من البر أو الشعير، وربما وضع معهما شيء من العسل أو اللبن.

والحزن قد يعرض لبعض عباد الله الصالحين، كما قال تعالى: ﴿حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ﴾[التوبة: ٩٢]، ولما جاء خبر موت أهل مؤتة جلس النبي ﷺ **يُعْرف** فيه الحزن. وقال : «**إنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون**» مع أن الأوْلى بالعبد أن يسعى جهدَه في إزالة الحزن عنه، فإن الحزن مضعف للقلب موهنٌ للعزيمة، لا يرُدّ من قضاء الله شيئًا، وإذا أصاب الحزن قلبَ المؤمن شكاه إلى ربه القادر على كل شيء،

كما قال تعالى عن يعقوب عليه السلام: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[يوسف: ٨٦].

ويمتن الله تعالى على بعض عباده بإبعاد الحزن عنهم، كما قال سبحانه: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ﴾[يونس: ٦٢-٦٤]، فالإيمان والتقوى من أسباب إبعاد الأحزان عن القلوب.

ومن طُرُقِ إبعاد الحزن عن القلب: اتباع هدي الله الوارد في كتابه، كما قال سبحانه: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[البقرة: ٣٨].

إن الدار الخالية من الأحزان هي الجنة، كما قال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾[الزخرف: ٦٧-٦٨]، وقال تعالى عن أهل الجنة: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾[فاطر: ٣٤]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾[فصلت: ٣٠].

ومن هنا جاءت الشريعة بالنهي عن الحزن الذي قد يعتري بعض قلوب المؤمنين من أجل صدود غير المسلمين عن دعوة الإسلام أو افترائهم الكذب على المسلمين، كما قال تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾[الأنعام: ٣٣]، وقال: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ

إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[يونس: ٦٥]، وقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ﴾[المائدة: ٤١]، وقال: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾[النحل: ١٢٧]، وقال: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾[لقمان: ٢٣]، وقال: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾[يس: ٧٦]، وقال: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾[النمل: ٦٩-٧٠]، وقال: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ﴾[فاطر: ٨]، وقال: ﴿لَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣].

إن المؤمنين لا يحزنون إذا حصل انتصار مؤقت لأعدائهم عليهم؛ فإن الآخرة خالصة لهم، وإن العاقبة الحميدة في الدنيا تكون لهم وما حصل ذلك الانتصار لأعداء الإسلام إلا لينقِّي الله المؤمنين ويصفِّيَهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾[آل عمران: ١٣٩-١٤٢، لم يرد في الشرع الأمر بالحزن المنافي لتمام

الرضا أبدًا؛ إذ لا فائدة في الحزن، بل قد يكون فيه مضرة، لكنه يُعْفَى عنه إذا لم يَقْتَرِن به ما يَكْرهه الله، وقد يقترن بالحزن ما يجعل صاحبه يُثَاب عليه ويُحمد عليه، ويكون محمودًا من تلك الجهة، كمن يحزن على مصيبة في دينه، أو يحزن بسبب المصائب التي تُصِيب إخوانه المسلمين، فهنا يُثَاب العبد على هذا الحزن لما فيه من محبَّةِ الخير للآخرين وبُغْضِ الشَّرّ لهم.

أسأل الله جل وعلا أن يوفقنا وإياكم للخير، وأن يبعد عنا وعنكم الحزن.

هذا، والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

٢٤- الرحمة

الحمد لله، يرحم الرحماء من عباده، والصلاة والسلام على محمد ﷺ وصفه ربه بأنه بالمؤمنين رءوف رحيم، أما بعد.

فإن من العبادات القلبية التي يتقرَّبُ المؤمنون بها إلى ربهم جل وعلا: أن يَرْحَمَ بَعْضُهُمْ بعضًا، والرحمة خلق فاضل يتضمن الرأفة والعطف والرقة والود ومحبة وصول الخير للآخرين، وهذه الرحمة من مقتضى الإخوة التي يقول عنها جل وعلا: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[الحجرات: ١٠]، وإنما جعل الله المؤمنين إخوة ليتعاطفوا ويتراحموا، وقد عاب النبي ﷺ على رجل فقال له: «**أَوَ أَمْلِكُ أن نزع الله من قلبك الرحمة من لا يَرحم لا يُرحم**»، ولما دَمِعَتْ عينا النبي ﷺ لموت أحد أسباطه؛ أي أبناء بِنته، قال سعد بن عبادة: ما هذا يا رسول الله؟ فقال: «**إنما هي رحمة جَعَلها الله في قلوب عباده، وإنما يَرْحم الله من عباده الرحماء**»، وفي الحديث الآخر: «**لا تُنْزَعُ الرَّحْمَةُ إلا مِنْ شِقِيٍّ**»، وقال ﷺ: «**الراحِمُون يَرْحمهم الرَّحمن، ارْحموا مَنْ في الأرض يرحمكم من في السماء**».

ومن صفات النبي ﷺ أنه رحيم بالمؤمنين، كما قال تعالى واصفًا نبيه ﷺ: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: شديد الرأفة والرحمة بهم، فهو أرحم بهم من أنفسهم ومن والدِيهم، وقال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ۖ﴾[آل عمران: ١٥٩]، وقد وصف الله تعالى نبيه محمد ﷺ فقال: ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾[التوبة: ٦١].

وكان النبي ﷺ يُجْلِس الحسن وأسامة على فَخِذَيْهِ، ويقول: «**اللهُمَّ ارحمهما، فإني أرحمهما**» فَصَلَّى الله على هذا النبي الكريم الذي وَصَفَهُ رَبه بقوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[التوبة: ١٢٨].

بل إن الله تعالى قد وصف أصحاب هذا النبي الكريم بهذه الصفة الفاضلة صفة الرحمة فيما بينهم، يقول الله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ﴾[الفتح: ٢٩].

لقد أوصى الله تعالى المؤمنين بالتراحم فيما بينهم، فقال جل وعلا واصفًا عباده المؤمنين: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾، جاء في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال: «**مثل المؤمنين في تَوَادِّهِم وتَرَاحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشْتَكَى منه عُضْو تداعى له سائر الجسد بالسَّهَرِ والحُمَّى**» وخصوصًا إذا كان هناك من هو أصغر منك فإنه يُشْرَع لك أن تَرْحمه، جاء في الحديث أن النبي ﷺ قال: «**ليس منا من لم يرحم صغيرنا**».

أما بالنسبة للآية السابقة التي فيها ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾[البلدة: ١٧] فالمراد بهذه الآية أنه قد أوصى بعضُهُم بعضًا بِرَحْمَة الخلق مما يثمر إعطاء محتاجهم وتعليم جاهلهم والقيام بما يحتاجون إليه من جميع الوجوه، مع مساعدتهم لقضاء مصالحهم الدينية والدنيوية، وأن يحب المرء لإخوانه ما يحب لنفسه، ويكره لهم ما يكرهه لنفسه، ومن كان بهذه الصفة فهؤلاء هم الذين

وفَّقَهُم الله لاقتحام العقبة وتجاوز النار إلى الجنة، وبالصبر تكون الشجاعة، وبالمرحمة يكون الكرم والإحسان.

ومما يدخل في رحمة المؤمنين بعضهم لبعض أن يعفو بعضهم عن زلات بعضهم الآخر، جاء في الحديث أن النبي ﷺ قال: «**إن لله مائة رحمة أَنْزَلَ منها رحمة واحدة بين الجِن والإِنس والوحوش والهوام فبها يتعاطفون وبِهَا يتراحمون، وبها تَعْطِف الوحش على أولادها، وادَّخر تسعة وتسعين رحمة لنفسه يرحم بها عباده**». ولفظ البخاري: «**جعل الله الرحمة مائة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءًا، وأنزل في الأرض جزءًا واحدًا، فمن ذلك الجزء يَتَرَاحَمُ الخَلْقُ حتى تَرْفَعَ الفَرَسُ حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه**».

قال مالك بن دينار: «ما ضُرِبَ عبد بعقوبة أعظم من قسوة قلبه، وما غَضِبَ الله على قَوْم إلا نَزَع الرحمة من قلوبهم».

ومن أسباب رحمة العباد بعضهم لبعض: محبَّتهم لبعضهم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾[مريم: ٩٦] أي: يُلْقِي بينهم المحبة، فيحب بعضهم بعضًا، فيتراحمون ويتعاطفون لما جعل الله لبعضهم في قلوب بعض من المحبة، وفي بعض الأحيان لا يَرْغَبُ المرحوم وصول الرحمة له ويكرهها، ومع ذلك يستحب للعبد أن يرحم من كان كذلك ولو بإيصال ما يكرهه مما ينفعه، ومثال ذلك الوالد، فإنه يؤمر بتأديب ولده وتعليمه رحمة به، ولو كَرِهَ الولد ذلك وشق عليه، كالوالد يُلْزِم ابنه بشرب الدواء مع كراهيته له رَحْمَة به وأملًا في شفائه، ولإبقاء التراحم بين المؤمنين نَهَت الشريعة عن أن يؤذي المسلم

إخوانه المسلمين، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾[الأحزاب: ٥٨].

إن تعاليم الشريعة كلها رحمة وليست رحمتها مختصة بالمسلمين، بل هي رحمة لجميع المخلوقين، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[الأنبياء: ١٠٧]، وفي الحديث أن النبي ﷺ قال: «**إنا لم نُبْعَثْ طَعَّانين ولا لَعَّانِين ولكنا بُعِثْنَا رَحْمَةً للعالمين**»، وقد ورد عنه ﷺ أنه قال: «**إنما أنا رَحْمَة مهداة**»، ومن هنا كان النبي ﷺ يحسن إلى الخلق، ومن جملة ذلك أن يَرْحَمَ الخلق بتعليمهم وإرشادهم ودَعْوَتِهم وبيان ما ينفعهم وما يضُرّهم، ولهذا كان النبي ﷺ رحمة في حق كل أحد من الناس بحسبه حتى المكذبين له هو في حقهم رحمة، ولهذا لما قال ملك الجبال: دعني أطبق عليهم الأخشبين، قال: «**لا، لعَلَّ الله أنْ يُخْرِج من أصلابهم من يَعْبُدَ الله**».

أسأل الله جل وعلا أن يجعل الرحمة في قلوبنا.

هذا، والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

٢٥- اليقين

الحمد لله على نعمة الإيمان واليقين، وأشهد أن لا إله إلا الله صدقًا، نجزم به جزم اليقين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، أما بعد.

فإن من الأعمال الصالحة التي تتقرب القلوب بها إلى باريها جل وعلا: أن تحصل اليقين وتبتعد عن الشبهات.

واليقين: طمأنينة القلب واستقرار العلم فيه، وضد اليقين الريب والشك الذي يتضمن الاضطراب، وكثرة الحركة، واليقين مبنيٌّ على علم للقلب وجزم منه مع عمل القلب بذلك الجزم، قال ابن مسعود رضي الله عنه: «خير ما ألقي في القلوب اليقين»، وقال: «اليقين الإيمان كله».

وعلامة اليقين وفائدته: أن صاحبه إذا وردت عليه شبهة أو حصلت له فتنة وابتلاء فإنه يثبت ولا ينجرف معها، ولا يتبع كل ناعق، قال الحسن: «باليقين طُلِبَت الجنة، وباليقين هُرِبَ من النار، وباليقين أُدِّيَت الفرائض، وباليقين صُبِر على الحق».

اليقين مع الصبر من أسباب نيل الإمامة في الدين، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾[السجدة: ٢٣]، وانظر لموقف النبي ﷺ هو وأصحابه في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾[آل عمران: ١٧٣].

أهل اليقين هم الذين يستفيدون من الآيات ويتفكرون فيها، كما قال سبحانه: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ﴾[الذرايات: ٢٠]، جاء في الحديث عن أنس رضي الله عنه أنه

قال: كان النبي ﷺ يكثر أن يقول: «**اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**»، فالدعاء من أسباب تحصيل اليقين، وكان من دعاء النبي ﷺ أيضًا: «**اللهم ارزقني من اليقين ما تُهَوِّن به عليّ مصائب الدنيا**»، وفي الحديث أن النبي ﷺ قال: «**سلوا الله العافية واليقين، فإن اليقين نعمة من الله**». قال بعض العارفين: «اليقين واردات ترد على النفوس تعجز النفوس عن ردها».

إن من أسباب تحصيل اليقين في القلوب: طلب العلم الشرعي، مع الاهتداء بالكتاب والسنة، قال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، وقال جل وعلا: ﴿يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [الرعد: ٢].

إن من أسباب تحصيل اليقين في القلوب: أن يعمل المرء بما لديه من العلم، كما قال سبحانه: ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾[المائدة: ١٥-١٦].

إن من أسباب تحصيل اليقين في القلوب: أن يتفكر العبد في آيات الله الكونية، وأن يعرف أنها من الله، وأن ينظر إلى ما فيها من العجائب، قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾[فصلت: ٥٣].

إن من أسباب تحصيل اليقين: أن يتخفف العبد من الذنوب بتركها قبل فعلها، أو بالاستغفار والتوبة منها بعد حصولها، وقد ورد في الحديث: «**أن للقلوب صَدَأً كصدأ النحاس، وجلاؤها الاستغفار**».

ومن أسباب تحصيل اليقين: أن يعرف المرء عادة الله جل وعلا في نصر أوليائه المؤمنين وإنزال العقوبة بأعدائه المجرمين، قال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾[هود: ١٢٠].

إن من أسباب تحصيل اليقين: أن يتأمل المرء في عجز الأمم عن الإتيان بمثل هذا القرآن، قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾[البقرة: ٢٣].

إن الإقبال على المعاصي والاستجابة لمضلات الفتن من أسباب زوال اليقين، كما في الحديث: «**تُعْرَضُ الفِتَنُ على القلوب كالحصير عودًا عودًا، فأيّ قَلْب أُشْرِبها نُكِتَت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نكتت فيه نُكْتة بيضاء حتى تصير على قلبَيْنِ: قَلْب أبيضَ مثل الصفا لا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض، والآخر أسْوَد مِربَادًّا لا يَعْرِف معروفًا ولا يُنْكر منكرًا إلا ما أشرب من هواه**».

إن عدم التزام الإنسان بما أمر الله به من فعل الطاعات من أسباب زوال اليقين، قال تعالى: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾[التوبة: ٧٧].

إن لدى أهل الإسلام من اليقين ما ليس لغيرهم، ولدى أهل السنة من اليقين ما ليس لأهل البدع، ولدى علماء أهل السنة من اليقين ما ليس لعوامهم، وهكذا الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب لا يسخطه أحد، وليحذر الإنسان من أن يعاقبه الله تعالى فيزيل اليقين من قلبه، و الله قادر على ذلك، كما قال سبحانه: ﴿فَإِن

يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾[الشورى: ٢٤]، وقال: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾[الأنفال: ٢٤]، وقال: ﴿ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾[يونس: ٧٤]، وقال: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[الحجر: ١٢-١٣].

لقد سمع الله قول أولئك الذين ضعف يقينهم بسبب ما حصل لديهم من المرض مرض القلب، ووصفهم بقوله: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ﴾ [البقرة: ١٠]، ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ﴾[المائدة: ٥٢].

إن عدم اليقين من أسباب دخول جهنم، قال الله تعالى حاكيًا عمن دخل النار: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾[الجاثية: ٣٢].

إن مما يجعل بعض الناس لا يوقن بوعد الله الصادق: تلك الأماني الكاذبة والدعاوي الباطلة التي تَغُر الإنسان، وتجعله يغفل عن المطالب القطعية والمسائل اليقينية، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾[الانفطار: ٦]، وقال سبحانه: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾[الملك: ٢٠].

قال ابن مسعود: «كفى بخشية الله علمًا، وكفى بالاغترار بالله جهلًا».

ومما يُبْعد اليقين: الغرور بالدنيا، بحيث تَخْدَع الأمور الدنيوية الإنسان، فيظن أنها المقصود الأساسي فيغفل عن الآخرة، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا

وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾[الأعراف: ٥١]، وقال: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ﴾[الأنعام: ٧٠]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾[فاطر: ٥].

وإن مما يصد عن اليقين: الغرور بوعود الشيطان الكاذبة، قال تعالى: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾[النساء: ١٢٠].

ومن ذلك أن يغتر بعض الناس بما أُعطِي الكفار من متاع الحياة الدنيا، قال تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾[آل عمران: ١٩٦-١٩٧]. وقال: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾[غافر: ٤].

ومما يصد عن اليقين: الاغترار بالدعاوى الزائفة التي تطلقها جماعات مبطلة يحاولون نشر أكاذيبهم وأباطيلهم، ليوهموا الناس وليموِّهوا على الناس، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾[الأنعام: ١١٢]، وقال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾[آل عمران: ٢٤]، وقال: ﴿بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾[فاطر: ٤٠].

ومما يصد عن اليقين: اغترار الإنسان بما أعطاه الله من نِعَم، وغَفْلَته عن قدرة الله على إزالتها، ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ١٥]. وقال: ﴿وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥].

اسمع قول الله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣ كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ﴾[الهمزة: ١-٤].

أسأل الله جل وعلا أن يجعلنا وإياكم من أهل اليقين، اللهم بَرِّدْ قلوبنا باليقين.

هذا، والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

٢٦- الحياء

الحمد لله لا يستحيي من بيان الحق وتوضيحه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾[البقرة: ٢٦]، والصلاة والسلام على أشرف أنبيائه ورسوله، أما بعد.

إن قلوب المؤمنين تتصف بصفة الحياء، فهي تستحيي من الله وتستحيي من عباد الله، والصوم من الأعمال الصالحة التي تزيد من وجود الحياء في القلوب، وبالحياء يعظم أجر الصائم ويكثر ثوابُه.

الحياء صفة تدفع إلى الإعراض عن القبيح ترفعًا عنه، الحياء مُشتق من الحياة، فإن القلب الحي يكون صاحبه حيًّا فيه حياء يمنعه عن القبائح، فإن حياة القلوب هي المانعة من القبائح التي تُفْسِد القلب؛ إذ إن الحي يدفع ما يؤذيه بخلاف الميت الذي لا حياة فيه، فإنه يسمى وقحًا، والوقاحة الصلابة وهو اليبس المخالف لرطوبة الحياة، فإذا كان وقحًا يابسًا صليب الوَجْهِ لم يَكُنْ في قلبه حياة توجب حياءه وامتناعه عن القبيح.

الحياء مادة حياة القلب، وهو أصل كل خير، وذهاب الحياء ذهاب الخير أجمع.

إن الذنوب تضعف الحياء عند العبد، حتى ربما انسلخ من الحياء بالكلية بسبب الذنوب بحيث لا يتأثر بعلم الناس بسوء حاله.

من استحيا من الله عند معصيته استحيا الله من عقوبته يوم لقائه.

خلق الحياء من أفضل الأخلاق وأجلِّها وأعظمها قدرًا وأكثرها نفعًا، بل إن خُلُق الحياء هو خاصية الإنسانية، فَمَنْ لَا حياء فيه ليس معه من الإنسانية إلا اللّحم والدَّم، ولولا خلق الحياء الفاضل لم يُكْرَم الضيف ولم يُوفَ بالوعد ولم تُؤَدَّ أمانة ولم

تقض لأحد حاجة، ولا تَحَرَّى الرجل الجميل فآثره، ولا ستر لغيره عورة، ولا امتنع من فاحشة.

كثير من الناس لولا الحياء لم يؤد شيئا من الأمور المفترضة عليه ولم يرع لمخلوق حقًا، ولم يصل رحمًا، ولا بر والدًا؛ لأن الباعث على هذه الأمور إما أن يكون دينيًا وهو رجاء عاقبتها الحميدة في الآخرة، وإما أن يكون دنيويًا عُلْويًا، وهو حياء فاعلها من الخلق، فلولا الحياء إما من الخالق أو من الخلائق لم يفعل صاحبها تلك الفضائل.

إن الحياء نور في قلب العبد يجعله ذلك الخلق يرى أنه واقف بين يدي ربه فيستحيي من الله في خلواته، فضلًا عن غيرها، جاء في الصحيحين أن النبي ﷺ قال: «**إِنَّ مِمَّا وَرِثَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النّبوة الأولى: إذا لم تَسْتَحِ فاصْنَع ما شئت**».

ومما يبعث على الحياء أن الله عز وجل يحب الحياء ويأمر به، وفي الصحيحين يقول النبي ﷺ: «**الحياء شعبة من الإيمان**» وفيهما: «**الحياء خَير كله**».

ومما يدفع إلى الحياء: أن يعلم العبد أن أنبياء الله عليهم السلام يتصفون بصفة الحياء، ففي الصحيح: «**أن موسى عليه السلام كان حييًا ستيرًا، لا يُرى من جلده شيء استحياء من الله**». وفي الصحيحين: «**كان رسول الله ﷺ أشد حياء من العذراء في خدرها**» يعني المرأة غير المتزوجة، أو في ليلة زواجها في خدرها، فإنه يكون في قلبها من الحياء ما الله به عليم، وقال النبي ﷺ عن عثمان رضي الله عنه: «**ألا أستحيي من رجل تستحيي منه الملائكة؟**»، وقال أنس: «**كان النبي ﷺ شديد الحياء**».

من الأمور الدافعة إلى أن يَتَخَلَّق الإنسان بخلق الحياء: أن يرى العبد كَثْرَة نِعَمِ الله عليه مع تَقْصِيره في جناب ربه، فإذا قَارَنَ العبد بين نِعَمِ الله وبين تَقْصِيره تَوَلَّدَ من ذلك الحياء من الله.

إن من أسباب وجود الحَيَاء في قلوب المؤمنين: أن يستشعر العَبْد اطلاع الله عليه، بحيث يجعله ذلك يستحيي من ربه، فإن العبد إذا علم أن الرب جل وعلا ينظر إليه ويطلع على جميع شأنه أَوْرَثَهُ ذلك الحياء من الله.

إن شدة محبة العبد لربه تجعله يستحيي من الله؛ إذ إن نفس المؤمن لا تطاوعه على إلقاء جلباب الحياء عند محبوبه جل وعلا.

ومن الأمور الدافعة إلى التخلق بخُلُق الحياء: كثرة المنافع والفوائد التي يجلبها الحياء، ففي الصحيحين، من حديث عمران بن حصين رضي الله عنهما، يقول النبي ﷺ: «الحياء لا يأتي إلا بخير». وفي السنن: «ما كان الحياء في شيء قط إلا زانه».

الحياء يجعل النفس تتحمل أعباء الطاعات، الحياء يُبْعد العبد عن معاصي الله، الحياء يكف النفس عن كل ما يشين ويقدح، الحياء يُلبس العبد ثوب الوقار وثياب المروءة، قد يقترن بالكبيرة من الحياء من الله والخوف منه سبحانه والاستعظام لذلك الذنب ما يلحق تلك الكبيرة بالصغائر، وقد يقترن بالصغيرة من قلة الحياء ما يلحقها بالكبائر، بل قد يجعلها في أشنع رتبها اعتبارًا بما في القلب، جاء في الترمذي، أن النبي ﷺ قال: «استحيوا من الله حق الحياء» فقالوا: يا رسول الله، إنا نستحيي والحمد لله. قال: «ليس ذاك، ولكن الاستحياء من الله حق الحياء: أن تحفظ الرأس وما وعى، والبطن وما حوى، ولْتَذْكُرِ الموت والبلى، ومن أراد الآخرة تَرَكَ زينة الدنيا، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء».

وروى أحمد في الزهد، أن رجلًا قال للنبي ﷺ: أوصني. قال: «أوصيك أن تستحيي من الله كما تستحيي رجلًا من صالحي قومك». قال عبيد بن عمير: «آثروا الحياء من الله على الحياء من الناس».

الذنوب تضعف الحياء من العبد حتى ربما انسلخ من الحياء بالكلية، حتى ربما لا يتأثر بعلم الناس بسوء حاله ولا باطلاعهم عليه.

إن بين الذنوب وبين قلة الحياء وعدم الغيرة تلازمًا عجيبًا من الطرفين، وكل منهما يستدعي الآخر ويطلبه، من استحيا من الله عند معصيته استحيا الله من عقوبته يوم يلقاه.

إن من الحياء: نصيحة الخلق، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأن حياءك من الله أعظم من خوفك من خلقه، وترك ذلك عجز وخَوَر ليس من الحياء المشروع في شيء.

ومن الحياء: أن تستحيي أن تطلب غير مولاك، وأن تعرض حوائجك على أحد سواه، قال عمر رضي الله عنه: «من قل حياؤه قلَّ وَرَعُهُ، ومن قَلَّ ورَعُهُ مات قلبُهُ» وقالت عائشة رضي الله عنها: «خلال المكارم عشر تكون في الرجل ولا تكون في ولده، وتكون في العبد ولا تكون في سيده، يجعلها الله حيث يشاء، أولها: صدق الحديث، وثانيها: صدق البأس، وثالثها: المكافأة بالصنائع، ورابعها: حفظ الأمانة، وخامسها: صلة الرحم، وسادسها: التذمم للجار، وسابعها: التذمم للصاحب، وثامنها: إعطاء السائل، وتاسعها: إقراء الضيف، وعاشرهن قالت وهي رأسهن : الحياء».

وقال أبو أيوب الأنصاري: «أربع من سنن المرسلين: التعطُّر، والنكاح، والسواك، والحياء».

أسأل الله جل وعلا أن يوفقنا وإياكم لخيري الدنيا والآخرة، وأن يجعلنا وإياكم من أهل الحياء، اللهم انشر الحياء في أمة نبيك.

هذا، والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

٢٧- محبة المؤمنين

الحمد لله رب العالمين، والصلاة السلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، أما بعد.

فإن من العبادات القلبية التي يؤجر العبد عليها: محبة المؤمنين، بأن يكون بين العبد وبين غيره من المؤمنين مودة يفرح بلقائهم ويستبشر برؤيتهم، ويُسَرّ بوصول الخير إليهم، ويَتَعَاوَنُ مَعَهُم، جاء في صحيح مسلم أن النبي ﷺ ذكر: **«أن رجلًا زار أخًا له في قرية أخرى، فأرصد الله على مَدْرَجَتِه -أي طريقه- ملكًا، فلما أتى عليه، قال الملك: أين تريد؟ قال: أريد أخًا لي في هذه القرية، قال: هل لك عليه من نعمة تَرُبّها عليه؟ قال: لا، غير أني أحببته في الله تعالى، قال: فإني رسول الله إليك بأن الله قد أَحَبَّكَ كما أحببته فيه»**.

إن الإخوة الإيمانية تنطلق بين المؤمنين، فتجعل بينهم المحبة والألفة، ومن ثَمَّ توجد بينهم الأخلاق الفاضلة وحسن العِشْرة وكَريم الصحبة، جاء في مسند أحمد، أن النبي ﷺ قال: **«المؤمن مَأْلَفة ولا خير في من لا يألف ولا يؤلف»**.

إن من أسباب انتشار المحبة بين المؤمنين: أن يفشو السلام بينهم، فيسلم المرء على من عَرَفَ ومن لا يعرف من المؤمنين، جاء في صحيح مسلم: أن النبي ﷺ قال: **«لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابّوا، ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحابَبْتُم؟ أفشوا السلام بينكم»**.

إن من أسباب وجود المحبة بين المؤمنين: أن يُهْدِي بعضهم إلى بعض الهدايا كما في الحديث: **«تهادَوْا تحابوا»** جاء عند الطبراني مرفوعًا: **«ثلاث يُصَفِّينَ لَكَ وُدَّ أخيك: تسلم عليه إذا لقيته، وتوسع له في المجلس، وتدعوه بأحب أسمائه إليه»**،

وفيه عن عمر أن النبي ﷺ قال: «إنَّ من عباد الله لأناسًا ما هم بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله» قالوا: يارسول الله، تخبرنا من هم؟ قال: «هم قوم تحابّوا بروح الله، على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطَوْنها، فوالله إن وجوههم لنور، وإنهم على نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حَزِن الناس، أولئك أولياء الله، ثم قرأ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[يونس: ٦٢]».

جاء في سنن أبي داود، أن النبي ﷺ قال: «أفضل الأعمال: الحب في الله، والبغض في الله».

روى الإمام مالك في الموطأ بسند جيد، أن النبي ﷺ قال: «قال الله عز وجل: وَجَبَتْ مَحَبَّتي للمتحابين فيّ، والمتجالسين فيّ، والمتزاورين في، والمتباذلين في»، فالمتحابون يحبهم الرحمن متى كان تحابهم لله. محبة المؤمنين لبعضهم توجد حلاوة الإيمان في القلب، كما في الصحيح: «ثلاث من كُنَّ فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يُحِبَّ المرء لا يحبه إلا لله» الحديث.

إن محبة المؤمنين لبعضهم من أسباب كونهم يستظلون في يوم القيامة، حيث تدنو الشمس من الرؤوس، ويُلْجِمُ العرق بعض العباد، كما جاء في الحديث المتفق عليه، أن النبي ﷺ قال: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، وذكر منهم: رجلين تحابًا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه».

وفي صحيح مسلم: «يقول الله تبارك وتعالى يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي».

وفي الترمذي بسند جيد: «**قال الله: المتحابون في جلالي لهم منابر من نور، يَغبطهم النبيون والشهداء**».

إن انتشار المحبة الإيمانية والتآلف بين المؤمنين من أكبر نعم الله تعالى على عباده المسلمين، قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾[آل عمران: ١٠٣]، وقال سبحانه: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[الأنفال: ٦٢-٦٣].

ولنشر الأخوة والمحبة الإيمانية جاءت الشريعة بالترغيب في الأخلاق الفاضلة والأقوال الطيبة، بل رغبت الشريعة في الإصلاح بين المتخاصمين، كما قال سبحانه: ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَـٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[النساء: ١١٤]، وقال سبحانه: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ﴾[الأنفال: ١].

إن نعمة المحبة في الله منة من الله وهبة منه سبحانه كما قال جل وعلا: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾[آل عمران: ١٠٣]، قال ابن مسعود: «كان النبي ﷺ يعلمهم هؤلاء الكلمات: **اللهم أصلح ذات بيننا وألف بين قلوبنا**».

إن المحبة الإيمانية تزيد في تماسك المسلمين وتآلفهم واجتماعهم وقوتهم، وتجعل بعضهم يعين بعضهم الآخر على الخير، وبذلك تسلم قلوبهم وتطمئن نفوسهم، ويرضى عنهم رب العزة والجلال.

إن من مقتضى المحبة الإيمانية: أن يحب العبد المؤمن أن يصل لإخوانه الآخرين الخير، كما في الصحيح أن النبي ﷺ قال: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**».

إن من أسباب زوال المحبة الإيمانية: أن يترك المؤمنون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن بني إسرائيل أول ما وقع فيهم النقص أنه كان الرجل يرى أخاه على الذنب فينهاه عنه، فإذا كان من الغَدِ لم يمنعه ما رأى أن يكون أكيله وشريبه وخليطه، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض.

جاء في الصحيح من حديث أنس أن النبي ﷺ قال: «**لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام**» وما ذاك إلا لأن الشيطان حريص على إيجاد العداوة بين المؤمنين وإبعاد الإخوة الإيمانية، وذلك بما يفعله الشيطان من بذل الأسباب المؤدية للبغضاء بينهم، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾[المائدة: ٩١]، وقال سبحانه: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾[الإسراء: ٥٣].

جاء في السنن من حديث الزبير ﵁ أن النبي ﷺ قال: «دَبَّ إليكم داءُ الأمم: الحَسَدُ والبغضاءُ، وهي الحالقة، لا أقول: تحْلِق الشَّعر، ولكن تحْلقُ الدِّين، والذي نفسي بيده، لن تدخلوا الجنة حتى تُؤْمِنوا ولا تؤمنوا حتى تحَابّوا، أفلا أنبأكم بما يثبِّتُ ذلك لكم؟ أفشوا السلام بينكم».

فمن هنا يجب على المؤمنين أن يستشعروا التقرُّبَ لله جل وعلا بإيجاد المحبة بينهم وبين إخوانهم المؤمنين، فذلك من أعظم العبادات التي يَتَقَرَّبُ بها المؤمنون إلى ربهم جل وعلا.

اللهم اجعل في قلوبنا محبة المؤمنين في مشارق الأرض ومغاربها.

هذا، والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

٢٨- تمني الخير للمؤمنين

الحمد لله رب العالمين، أمر المؤمنين بتصفية قلوبهم بحيث تتمنى الخير للآخرين، وترغب في حصولهم على ما ينفعهم في الدنيا والدين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، أما بعد.

فقد جاءت الشريعة بأمر المؤمنين بتمنِّي الخير لجميع الخلق وخصوصًا المؤمنين، ويدخل في الخير الذي يتمناه الإنسان لغيره: الهداية لدين الله، والتمسك بشعائر الإسلام، والتزام أحكام الدين. ويدخل في ذلك: تمني حصول الجميع على منافع الدنيا وثمراتها وخصوصًا مع المؤمنين، وقد قال النبي ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى يُحِبَّ لأخيه ما يحب لنفسه**»، وفي لفظ: «**لا يبلغ العَبْدُ حقيقة الإيمان حتى يُحِبَّ للناس ما يحب لنفسه من الخير**»، وليس هذا خاصًا بالمؤمنين، فقد قال النبي ﷺ: «**مَنْ أحبَّ أن يُزَحْزَحَ عن النار ويَدْخُلَ الجنة فلْتُدْرِكْه مَنِيَّتُهُ وهو مؤمن بالله واليوم الآخر، وليأتِ إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه**»، فإن قال قائل: كيف يقال بأن هذا يشمل الكافرين، والشريعة قد أمرتنا بقتالهم وجهادهم، قيل: إن الشريعة قد أمرت بالإحسان إليهم، قال تعالى: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[المائدة: ١٣]، وهذا معنى أعظم من مجرد تمنِّي الخير لهم، وقد جاء في الحديث: «**في كل كبد رطبة أجر**»، والله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾[النحل: ٩٠]، وهذا عام مع الجميع، لكن ليُعْلَم بأن من محبة وصول الخير إليهم: أن نتمنى عدم تمكُّنهم من الصَّدِّ عن دين الله، ومن ذلك أن نتمنى عدم قدرتهم على إيذاء المؤمنين، فإن هذا

يُقلل من سيئاتهم، وكذلك نرى مشروعية جميع الأعمال التي تفعل معهم من أجل تقليل شرهم لتقل سيئاتهم، فتحصل المصلحة لهم ولغيرهم وليس المراد مجرد العلو في الأرض وبهذا نعلم الفرق بين المؤمنين وبين غيرهم، فالمؤمن يتمنى الخير لغيره، قال تعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ﴾[البقرة: ١٠٥]، وقال سبحانه: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ﴾[البقرة: ١٠٩].

وفي المقابل حذرت الشريعة من عدم تمني الخير للآخرين، أو من تمني الشر لهم، أو من تمني زوال النعم عنهم، فإن هذا هو الحسد الذي جاء في سنن أبي داود، أن النبي ﷺ قال: **«إيَّاكم والحسد، فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب»**، وفي حديث الزبير مرفوعًا: **«دَبَّ إليكم دَاءُ الأمم قبلكم: الحَسَد والبغضاء، هي الحالقة، لا أقول: تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين»**.

وقد عاب الله تعالى على أهل صفة الحسد، فقال: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾[النساء: ٥٤]، وفي الحديث يقول النبي ﷺ: **«لا تنافسوا، ولا تحاسدوا»**، وفي الصحيح: **«ولكن أخشى عليكم أن تُبْسَطَ الدنيا عليكم كما بُسِطَتْ على من كان قبلكم فتَنَافسوها كما تنافسوها فتُهْلِكَكُم كما أهلكتهم»**، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾[النساء: ٣٢].

ومن أعظم ما يتمكن المرء به من دفع الحسد عن نفسه، ومن دفع آثار الحسد السيئة: أن يلتجئ إلى ربه جل وعلا دعاء وتضرعًا وسؤالًا بأن ينجيه من شر الحاسدين، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِن شَرِّ مَا خَلَقَ (٢) وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (٣) وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (٤) وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾[الفلق: ١-٥]، وكان من رقية النبي ﷺ: «**بسم الله أرقيك، من كل شيء يؤذيك، من شر كل نَفْسٍ أو عَيْنِ حَاسِدٍ، الله يشفيك**».

إن المحسود يتمكن من دفع ضرر الحاسد عنه بالتعوذ بالله من شرِّه، وبِتَقْوَى الله؛ فإن من اتقى الله حفظه الله، كما في حديث ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «**يا غلام احفظ الله يحفظك**».

ومما يتمكن به المحسود من دفع ضرر الحاسدين عنه: أن يقبل على الله عملًا وإخلاصًا، وأن يتوكل على الله جل وعلا؛ فإن من تَوَكَّلَ على الله فهو حسبه؛ أي: كافيه شرور خلقه.

يتمكن المحسود من دفع ضرر الحاسد عنه بالصبر عليه، والإعراض عن أذاه، وعدم اشتغال القلب بذكره، مع التوبة إلى الله من الذنوب التي سُلِّط عليه العدو بسببها.

ومما يتمكن المحسود به من دفع ضرر الحاسد عنه: أن يكثر من الصدقة والإحسان، وخصوصًا أن يُحْسِن إلى الحاسد؛ لأن ذلك يطفئ حسده.

من أعظم ما دفع به الحسد: إفراد الله بالعبادة، وعدم صرف شيء من العبادات لغير الله؛ فإن أهل التوحيد يقيهم الله شرور غيرهم.

إن الحسد يفسد الدين، ويضعف اليقين، ويذهب المروءة، قال معاوية رضي الله عنه: «ليس في خصال الشر أعجل من الحسد، يقتل الحاسد قبل أن يصل إلى المحسود». وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: «ما أكثر عبد ذكر الموت إلا قَلَّ فرحه وقَلَّ حسده»، وقال الحسن رحمه الله: «يا ابن لِمَ تحسد أخاك؟! فإن كان الذي أعطاه لكرامته عليه فلم تحسد من أكرمه الله؟! وإن كان غير ذلك، فَلِمَ تحسد مَنْ مصيره إلى النار؟!» وقال بعضهم: «الحاسد مغتاظ على من لا ذنب له، بخيل بما لا يملكه، طالب لما لا يجده».

أَيَا حَاسِدًا لِي عَلَى نِعْمَتِي ... أَتَدْرِي عَلَى مَنْ أَسَأْتَ الأَدَبْ

أَسَأْتَ عَلَى اللهِ فِي حُكْمِهِ ... لِأَنَّكَ لَمْ تَرْضَ لِي مَا وَهَبْ

وكذلك نهت الشريعة عن الغِلِّ، وهو إضمار الشر للغير، وكان من دعاء المؤمنين: رَبَّنَا لَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنا إِنَّكَ رَءوف رَحِيمٌ.

ومما قد يلتبس بالحسد والغِل: الغَيرة؛ فإن مما له تعلق بذلك من أعمال القلوب الغيرة التي أصلها الأنفة، وفي الاصطلاح الغيرة: كراهية النفس مشاركة الآخرين للإنسان فيما يظن اختصاصه به، وقد قال النبي ﷺ: **«إن من الغيرة ما يحب الله عز وجل، ومنها ما يبغض سبحانه»** وهذا ما سنفصل فيه القول في لقاء آخر.

نسأل الله جل وعلا أن يرزقنا وإياكم الإيمان والتقوى، وأن يجعلنا ممن يحب الخير للآخرين، ولا يحسد أحدًا من خلق الله.

هذا، والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

٢٩- القناعة

الحمد لله رب العالمين يعطي من يشاء بفضله ويمنع من يشاء بحكمته، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، أما بعد.

أسأله جل وعلا أن يجعلنا وإياكم ممن رُزِقَ القناعة في كل شأنه.

إن من عبادات القلوب التي يَتَقَرَّبُ المؤمنون بها إلى ربهم: عبادة القناعة، فيقنع الإنسان بما قدره الله من الرزق.

والقناعة رضا العبد بالمقسوم من الأرزاق، مع عدم تطلّع القلب إلى غير ما في يد صاحبه.

القناعة نعمة عظيمة ينعمها الله على بعض عباده، فتهنأ نفوسهم وترتاح قلوبهم، وقد فسرت الحياة الطيبة في قوله تعالى: ﴿فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ﴾[النحل: ٩٧] بالقناعة والرضا والرزق الحسن.

إن كثرة مال المرء لا تعني غناه ولا سعادته، وإنما الغنى في القناعة، كما قال النبي ﷺ: «**ليس الغِنَى عن كثرة العرض ولكنَّ الغِنَى غِنَى النفس**» متفق عليه.

ومن أسباب القناعة: عدم تطلُّعِ الإنسان إلى مَنْ فَضَّلَهُ الله عليه في أمور الدنيا، وإنما يطالع من كان أقل منه، كما قال النبي ﷺ: «**انظروا إلى مَنْ هو أسْفَلَ منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقَكُمْ؛ فإنه أجدر ألا تزدروا نعمة الله عليكم**» ولذلك يحصل للمرء القناعة والرضا بما رزقه الله، فيكون من أهل العفاف، يقول النبي ﷺ: «**ومن يستعْفِف يُعِفَّه الله، ومن يستغن يغنِهِ الله**» متفق عليه.

إن القناعة كما يحصل بها راحة البال وهدوء النفس يحصل بها الفلاح والنجاح دنيًا وآخرة، في صحيح مسلم، أن النبي ﷺ قال: «**قد أفلح من أسلم ورزق كفافًا وقنَّعَهُ الله بما آتاه**».

عند ابن حبان، أن النبي ﷺ قال: «**طوبى لمن هدي إلى الإسلام، وكان عيشه كفافًا وقنَّعه الله به**»، وفي الحديث الآخر يقول النبي ﷺ: «**من أصبح معافًى في بدنه، آمنًا في سربه، عنده قوت يومه وليلته فكأنما حيزت له الدنيا**».

عند ترك الإنسان للقناعة تنشأ الخصومات الجالبة للسوء في الدنيا والآخرة، جاء في الصحيحين أن النبي ﷺ قال: «**والله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخاف أن تُبْسَطَ عليكم الدنيا كما بُسِطَتْ على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، فتهلككم كما أهلكتهم**» فجعل الدنيا المبسوطة هي المهلكة بسبب حبِّها، وشدة الحرص عليها والمنافسة فيها، والجزع من أجلها، فما أشنع آثار ترك القناعة! يقول النبي ﷺ: «**ما ذئبان جائعان أُرْسِلا في غنم بأفسد لها من حرص الرجل على المال والشرف لدينه**».

كان النبي ﷺ يدعو ربه أن يجعله من أهل القناعة، فقد ورد أن من دعاء النبي ﷺ بين الركنين: «**رب قنِّعْني بما رزقتني، وبارك لي فيه، واخلف علي كل غائبة بخير**».

القناعة لا تعني أن يرد العبد ما يصل إليه من أرزاق الله، أو من الهدايا والهبات، ولكن القناعة عدم تطلع العبد إلى ما لم يقدره الله له، وعدم حزنه على فوات بعض الأرزاق عليه، فمن كان كذلك فما أعظم بركة الله عليه! جاء في حديث حكيم بن

حزام قال: سألت رسول الله ﷺ فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم قال: «يا حكيم، إن هذا المال خضر حلو، فمن أخذه بسخاوة نفس بُورِكَ له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يُبَارَكْ له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع».

قال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه لابنه: «يا بني، إذا طَلَبْتَ الغنى فاطلبه بالقناعة، فإنها مال لا ينفد، وإياك والطمع؛ فإنه فقر حاضر، وعليك باليأس؛ فإنك لم تيأس من شيء قط إلا أغناك الله عنه»، ولن يترك المرء القناعة إلا لأحد أمرين: إما حرص وجشع، وإما لخسة ومهانة وإضاعة.

إن القناعة لا تعني أن يترك الإنسان سبل الاكتساب، أو أن لا يبذل المرء الأسباب لتحصيل الأرزاق، فذلك ليس من القناعة في شيء، بل هذا من الكسل وعدم القيام بما رغب الله فيه من الاتجار، قال أنس رضي الله عنه: «أربع من الشقاء: جمود العين، وقساوة القلب، وطول الأمل، والحرص» فإن الحرص والجشع مما يضاد القناعة.

قال ابن القيم: «الحرص والكَلَب على الدنيا رأس كل خطيئة، وأصل كل بلية، وأساس كل رزية، ولذا قيل: القناعة كنز لا يفنى، وأطيب العيش القناعة»، قال بعضهم: «أول ذنب عُصي الله به نتج من الحرص والكبر والحسد، فالحرص من آدم، والكبر من إبليس، والحسد من قابيل».

وقال ابن القيم عن سوء الخاتمة: «لسوء الخاتمة أسباب: أعظمها الانكباب على الدنيا، وطلبها، والحرص عليها، والإعراض عن الآخرة».

إن القناعة تجعل العبد يؤدي حقوق الله المالية، بل تَجْعُلُه ينفق في الطاعات من غير الواجبات، فيعظم بذلك أجره، ويُخْلِفُ الله عليه ما أنفقه، فإن الله قد وعد المنفقين بالخلف: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾[سبأ: ٣٩]، وفي الحديث القدسي: «**يا ابن آدم، أنفق أُنفق عليك**»، وفي الحديث النبوي: «**ما من صباح إلا وينادي فيه مناديان، يقول أحدهما: اللهم أعط كل منفق خَلَفًا، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكًا تلفًا**».

ومما يعين العبد على تحصيل القناعة: العلم بأن الأرزاق بيد الله، كما قال سبحانه: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ﴾[العنكبوت: ٦٢].

ومما يعين على ذلك: أن يعلم العبد أن الله عز وجل قد تكفَّلَ بإيصال الأرزاق إلى العباد، وتكفل بإيصال ما قُدِّر لكل عبد إليه، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾[هود: ٦]، وفي الحديث: «**إن الرزق ليطلب العبد كما يطلبه أجله**».

إن الحرص يُنْقِص من قدر المرء عند الله وعند الخلق. إن الحرص لا يستجلب رزقًا ولا يؤثر في قضاء الله، وفي الخبر: «لا تستبطئوا الرزق، فإنه لم يكن عبد ليموت حتى يبلغ آخر رزق له، فأجملوا في الطلب، خذوا ما حل ودعوا ما حرم».

إن الحرص مؤثر سلبًا على قلب المرء وتصوراته، فإنه يمنعه من تمام العلم وكمال التصور، فالحرص يمنع من الاستمتاع بِنِعَمِ الله، والقناعة تورث طمأنينة القلب وانشراح الصدر، بينما الجشع يورث قلق القلب واضطرابه وهمه وغمه.

إن ترك القناعة يؤدي إلى الشح والبخل والظلم، وهي أفعال مذمومة شرعًا، فإن أصل الشح شدة الحرص، فيتولد عنه البخل والظلم، قال تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[الحشر: ٩].

أباح الله لبني إسرائيل الصيد في جميع أيام الأسبوع إلا يوم السبت، فلم يدعهم حرصهم وجشعهم حتى تعدوا إلى الصيد فيه، فعاقبهم الله بالحرمان التام مع تحويلهم قردة وخنازير، ولذا فيترك المرء مجالسة أهل الحرص على الدنيا لعله يسلم مما هم فيه.

أسأل الله جل وعلا أن يرزقنا وإياكم القناعة، وأن يُبْعِدَ عنا الحرص والجشع.

هذا، والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

٣٠- الغيـرة وحضور القلب في الصلاة والدعاء

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، أما بعد.

فإن من أعمال القلوب: الغيرة التي أصلها الأنَفَة، ومعنى الغَيْرة في الاصطلاح: كراهِية النفس أن يُشَارِكَ الآخرون العبد فيما يظن أنه من اختصاصه، والغَـيْرَة منها ما هو محمودٌ، ومنها ما هو مَذْموم، جاء في المسند والسنن من حديث جابر رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن من الغيرة ما يحب الله عز وجل، ومنها ما يبغض الله عز وجل، فأما الغيرة التي يحب الله عز وجل: فالغيرة في الريبة، وأما الغيرة التي يبغض الله عز وجل: فالغيرة في غير ريبة**».

وفي حديث عليّ: «الغيرة غيرتان: غيرة حسنة جميلة يُصْلح بها الرجل أهله، وغيرة تدخله النار تحمله على القتل فيقتل».

وفي صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال: «**المؤمن يغار، والله أشد غيرة**»، وفي الصحيحين من حديث المغيرة، أن سعد بن عبادة قال: يا رسول الله: لو رأيت رجلا مع امرأتي لضربته بالسيف، فقال النبي ﷺ: «**تعجبون من غيرة سعد والله لأنا أغير منه، والله أغير مني، ومن أجل غيرة الله حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن**».

وفي الصحيح من حديث أبي هريرة: «**إن الله يغار، وغيرة الله أن يأتي المؤمن ما حرم الله عليه**».

وورد في بعض الآثار: «الغيرة من الإيمان، والمذاء من النفاق» والمذاء: الإذن باختلاط الرجال مع النساء الأجانب.

فمن الغيرة المشروعة أن يغار الإنسان على محارمِهِ، ومن ذلك أن يغار على أبنائه من أصدقاء السوء، ومن ذلك أن يغار على شريعة رب العالمين أن يتكلم فيها من يريد صَدّ الناس عنها وتحريف أحكامها، ومع مراعاة الغيرة المشروعة فإن العبد لا يتغافل عن مبادئ الأمور التي تخشى غوائلها، لكن لا يبالغ في إساءة الظن والتعنّت والتجسّس على البواطن.

إن من الأمور التي ينبغي أن تلاحظ أن الله تعالى يغار إذا توجَّه العباد بعباداتهم لغيره، أو كانت قلوبهم معلقة بغيره، وإنما الواجب على العباد أن يجعلوا عباداتهم كلها لله جل وعلا، بحيث يتوجهون بدعائهم وسائر قرباتهم لله جل وعلا، ومن ذلك أن تحضر قلوبهم عند عبادتهم لله جل وعلا، ومما يدخل في معنى حضور القلب أن يمتلئ القلب من عظمة الله عز وجل، مع الأنس بالقرب من الله ومناجاته، والحياء منه سبحانه أن يطلع على ما لا يَرْضى من الأقوال والأفعال، خصوصًا حال المناجاة؛ إذ قبيح بالعبد في الصلاة مثلًا أن يقول بلسانه: الله أكبر، وقد امتلأ قلبه بغير الله.

إن حضور القلب في العبادات يعني أن يستشعر العبد أنه واقف بين يدي الله عز وجل، ومن ثَمَّ يقف موقف العبد الخادم الخائف الوَجِل، فيعرف معاني ما يتكلم به، ويفهم مقاصد الأفعال التي يؤديها بين يدي سيده، وحينئذٍ يسكن لذلك قلبه، وتطمئن نفسه، ومن أمثلة ذلك: حضور القلب عند قراءة القرآن، فإن الله يغار عندما يقرأ العبد القرآن، ويكون قلبه في غير تأمُّل معاني كتابه، ومن أراد أن ينتفع بما في القرآن من المعاني العظيمة والمصالح الجليلة فليُجْمع قلبه عند تلاوته أو سماعه،

وليحضر بقلبه حضور من يُخاطَبُ به كأن الله يكلمك الآن، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[ق: ٣٧].

قال ابن القيم: «إذا اجتمع مع الدعاء حضور القلب، وجمعيته بكليته على المطلوب، وصادف وقتًا من أوقات الإجابة، وصادف خشوعًا في القلب، وانكسارًا بين يدي الرب، وذلًا له وتضرعًا ورِقَّةً، واستقبل الداعي القبلة، وكان على طهارة، ورَفَع يديه إلى الله تعالى، وبدأ بحمد الله والثناء عليه، ثم ثنَّى بالصلاة على محمد عبده ورسوله ﷺ، وقدَّم بين يدي حاجته التوبة والاستغفار، وألَحَّ على الله في المسألة، وتملَّقه ودَعَاهُ رغبة ورهبة، وتوسَّل إليه بأسمائه وصفاته وتوحيده، وقدَّم بين يَدَي دعائه صدقة، فإن هذا الدعاء لا يكاد يُرَدّ أبدًا، ولا سيما إن صادف الأدعية التي أخبر النبي ﷺ أنها مظنة الإجابة، أو أنها متضمنة للاسم الأعظم».

في الدعاء من الفائدة: أنه يستدعي حضور القلب مع الله عز وجل، وذلك منتهى العبادات، فالدعاء يَرُدّ القلب إلى الله عز وجل، قال ابن رجب: «من أعظم شرائط إجابة الدعاء: حضور القلب، ورجاء الإجابة من الله تعالى»، كما ورد: «ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة»، و«إن الله لا يقبل دعاء من قلبُهُ غافل لاه»، وفي (التذكرة): «الذكر لله له شرطان: حضور القلب في تحريره وبذل الجسد في تكثيره»، وقال غيره: «إذا أردت استجلاب حضور قلبك الغائب، ففرِّغه من الشواغل مهما استطعت».

من فوائد حضور القلب: إجابة الله لدعاء المسلم إذا دعاه بقلب حاضر مع تعلّق القلب بالله عز وجل، مما ينتج عنه راحة النفس، ونقاء القلب، ضرب الحكيم

الترمذي رَحِمَهُ اللَّهُ أمثالًا لمن كان غافل القلب في عباداته، فقال: «مثل المصلي الذي يسهو بقلبه عن ربه كمثل رجل جنى جناية في حق الأمير، ثم ندم فاستتبع أتباعه، وتوجه إلى باب الأمير معتذرًا من أجل أن يصفح عن سوء أدبه، فلما أذن له الأمير، ووقف بين يديه، وأقبل الأمير عليه بوجهه ليَقْبَل عذره ويحسن إليه أعطى ذلك الرجل جنبه للأمير، وبدأ يتحدث مع أحد خدم الأمير، فما ظنك بموقف الأمير حينئذٍ؟ ألا يُعْرِض الأمير عنه؟ ألا يقع في نفسه أن هذا متلاعب وليس بمعتذر؟ بل هذا مستخِفٌّ بحق الأمير، ومن ثَمَّ فلن يعبأ الأمير بعذره»، وضرب مثلًا لمن يدعو بدون حضور قلبٍ ولا رغبةٍ ولا رهبة «بمن يطرق بابًا ويطلب من أهله المساعدة، فلما فتحوا له الباب وعرض حاجته عليهم، ودخلوا للبيت ليحضروا ما يقدمونه له، لم يلبث عند الباب، بل مضى لسبيله، فلما وصلت المساعدة للباب لم يجدوا ذلك الرجل الذي يطلب المساعدة، فأدخلوها داخل البيت، فكان الرجل ينتقل بين البيوت، وهذا شأنه فلم يحصل على مساعدة، ولن يجدَ معينًا له»، ومَثَّل لمن يثني على ربه بقلب غافل «بمن جنى جناية فلم يعتذر حال الإفاقة، بل لما شرب مسكرًا وقف بين يدي المَجْنِي عليه وقَبَّل رأسه ومدحه، فلم يلتفت المجني عليه إليه لعلمه بأنه لا يعقل ما يقول».

أسأل الله جل وعلا أن يجعلنا وإياكم ممن حضر بقلبه في عباداته، فكان قلبه حاضرًا في صلاته، وفي دعائه، وفي مناجاته، وفي ذكره، وفي ثنائه على ربه.

هذا، والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

الموضوع	الصفحة

من إصدارات الدار

لفضيلة الشيخ الدكتور سعد بن ناصر الشثري

- مختصر صحيح البخاري (مجلد)
- فقه المناسك(مجلد)
- أدب الحوار
- شرح المختصر في أصول الفقه (مجلد)
- حقيقة الإيمان وبدع الإرجاء في القديم والحديث
- حكم زيارة أماكن السيرة النبوية
- مفهوم الغذاء الحلال
- أخلاقيات الطبيب المسلم
- آراء الصوفية في أركان الإيمان
- مقاصد الشريعة الإسلامية
- الطرق الشرعية لإنشاء المباني الحكومية
- القواعد الأصولية والفقهية للمسلم غير المجتهد
- عبادات الحج
- شرح المنظومة السعدية
- العلماء الذين لهم إسهام في علم الأصول والقواعد الفقهية
- شرح الورقات في أصول الفقه
- قوادح الاستدلال بالإجماع - الاعتراضات الواردة على الاستدلال بالدليل من الإجماع والجواب عنها (مجلد)
- المصلحة عند الحنابلة
- عقد الإجارة المنتهي بالتمليك
- الأصول والفروع - حقيقتهما والفرق بينهما (مجلد)
- شرح مقدمة التفسير (مجلد)
- شرح رسالة في أصول الفقه للحسن بن شهاب العكبري (مجلد)
- شرح كتاب قواعد الأصول ومعاقد الفصول (مجلد)
- شرح عمدة الأحكام (مجلدان)
- شرح الأربعين النووية المختصر (مجلد)
- شرح الأصول في علم الأصول للشيخ ابن عثيمين (مجلد)
- أصول الفقه للمتخصصين في غير العلوم الشرعية